المواجهة



تحرير المرأة

قاسم أمين

التنوير



قاسم أمين

تحرير المرأة
التنوير



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

تصـــدير

كانت اعادتى قراءة هذا الكتاب ، الذى صدر منذ سبعين سنة، مفاجأة مثيرة بالنسبة لى ··

فقد سبق أن قرأت هذا الكتاب منذ سنوات بعيدة ، كما قرأه غيرى فى أجيال متعـــاقبة ، ثم مضى الى احـدى الزوايا البعيدة للذاكرة ، حتى لم يبق منه واضحا الا القضية العامة التى يتحدث عنهـــا ·

كذلك بعض المعارك حين يتم كسبها ، يصبح ما ثارت من أجله بديهة من بديهيات الحياة ـ تبدو على البعد سهلة بسيطة ، وأحيانا مسلية مثيرة للابتسام ألا يثير الابتسام · الآن ـ مثلا ـ أن نسترجع معركة دارت منذ سبعين سنة حول أشياء مثل : حقوق المرأة فى التعليم ، وحقها فى العمل ، وحقهـا فى أن تســـير فى الشـــارع مكشوفة الوجه ؟

ولكن أكثر بديهيات الحياة لم تصبح بديهيات بهذه السهولة · وأصعب ما يمكن تغييره هو المعتقدات والعـادات والتقاليد · ان اختراع الطائرة ، مثلا ، وما يترتب على ذلك من نتائج الحياة لا يثير لدى الانسان مشكلة كبـيرة · انه يتقبلهـا ويستعملها ويعتادها بسهولة · ولكن تغيير عادة اجتماعية ، كوضع الحجاب على وجـه المرأة ، أو تغيير عـلاقة المرأة بالرجـل ، أمر لا يعتـــاده المجتمع بســهولة · فهنـا يواجه الانسان صراعا مع نفســه ، مع تكوينه

الاجتماعي والنفسي والثقافي . وهو أقسى وأصعب من صراعه مع الطبيعة الذي يتمثل في الاكتشافات العلمية والاختراعات مهما كان أثرها في تغيير حياته ·

والحديث عن « تحرير المرأة » في البيئة المصرية ـ والعربية ـ بوجه عام ، منذ سبعين سنة ·· لم يكن فكاهة ولا تسلية ، وانما كان معاناة صعبة قاسية · يكفي أن نتذكر أننا اليوم ، وبعد أن كسبت قضية تحرير المرأة نظريا وفكريا نستطيع أن نرى الحجاب ـ وهو ليس جوهر قضية تحرير المرأة · ولكنه أبسط مظاهرها ـ ما زال سائدا في ما لا يقل عن نصف المدن والقرى العربية وان كان الحديث عن تحرير المرأة قد أصبح عاديا ومألوفا ··

على أنه هنا تكمن المفاجاة المثيرة التي ظفرت بها عندما رجعت الى هذا الكتاب أقرؤه من جديد : ان الحديث الذي يقدمه لنا ليس عاديا ولا مألوفا على الاطلاق · وهو بالتأكيد ليس كتابا « قديما » في مضمونه وصياغته ومنطقه : ان نوع تناوله للموضوع ، وأفقه ، وعمقه ، وألوانه النابضة الحية ـ تجعل المرء يشعر وكأن كاتبه قد نفض يده من كتابته بالأمس فقط ···

وبهذا المعنى ، فانه من الظلم أن يقال ان معركة قاسم أمين كانت الحجاب ، أو المرأة فقط · واذا كان الحجاب هو الساحة المباشرة التي دار فيها معظم القتال ، فان ما تصدى له قاسم أمين كاف في مداه ، وفي مغزاه ، أوسع كثيرا من ذلك ···

ان مكان قاسم أمين الحقيقي هو بين ذلك الرعيل من المناضلين المفكرين الذين حفل بهم ما يمكن أن نسميه « عصر التنوير » الأول في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن · مكانه الحقيقي هو بين جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده وأديب اسحق وفرح أنطون وعبد الله النديم وعبد السلام المويلحي وسعد

زغلول . ثم طه حسين وعلى عبد الرازق وساطع الحصرى اذا شئنا أن نتوغل قليلا فى القرن العشرين ٠

هذا الرعيل ، شب ونشأ وخاض فترة من أخطر الفترات فى تشكيل الواقع المصرى فى الدرجة الأولى ، والعربى بوجه عام ٠

لقد أقام محمد على أسس « الدولة » المصرية الحديثة ، وهز قوائم الامبراطورية التركية التى كانت تغطى العالم العربى كله تحت عباءتها الواسعة ، وحقق كل ما يلزمه لانجاز هذا الهدف : سواء فى مجال الزراعة أو الصناعة أو الاقتصاد أو التسليح أو التعليم ٠

ولكنه لم يغير — أو لم يتصد لتغيير — شىء من حياة المجتمع وأفكاره ومعتقداته بوجه عام ، ثم انكسرت محاولته وانحسرت أمام « تحالف عالمى » أراد انقاذ الامبراطورية التركية الشائخة واجهاض هذه الدولة البازغة فى الأفق العربى ٠

وقد هبت بعد ذلك الثورة العرابية ، محاولة شعبية هذه المرة ، لتحرير المجتمع المصرى ، ثم انكسرت أمام قوة دولية أخرى — أكبر قوة دولية فى ذلك الوقت انجلترا ، أجهضت مرة أخرى المحاولة الجديدة لاقامة كيان مستقل يتحمل تبعات نفسه وينفتح على التطور ٠٠

تلك كانت روائح العصر ٠٠

الامبراطورية العثمانية — الدينية — فى أفول ، وقد خرجت من مصر ، ولكن بقى ظلها ماثلا فى أذهان الكثيرين سواء تمسكا بفكرة الدولة الدينية أو مقاومة للانجليز ٠٠ وامبراطوريات أوربية صناعية صاعدة ، تشق طريقها لترث الامبراطوريات القديمة ، ولتبدأ عصر الاستعمار بمعناه الجديد آنذاك ٠٠ وحركة قومية عربية تغلى ، وحركة وطنية مصرية تشب ، وهجرة فكرية عربية الى مصر

المتمتعة بقدر نسبى من التحرر .. ورياح عصر جديد أوربى يهز النوافذ والأبواب القديمة بأفكار وثياب وعادات وأساليب جديدة ، وتشبث عنيف بالماضى حتى لا تضيع الهوية والشخصية والكيان ، مع تحرق حاد الى الاتصال بالجديد واكتسابه والظفر بمقوماته ..

عصفت هذه التيارات كلها بمصر ، وتكاثرت الأمثلة الخطيرة المطروحة على العقل المصرى ، والعربى بوجه عام ...

ما الذى حدث عبر القرون ؟

ما الذى جعلنا نتخلف وغيرنا ينطلق ؟

ما علاقتنا بالماضى ؟ وماذا نسلك من طرق المستقبل ؟

ما جوهر الدين ؟ .. وما الذى علق به فى عصور الانحطاط ؟

ما الحلال والحرام ؟

من الشعب ؟ ... وما السلطة ؟ ومن الذى يحكمه ؟

أنصلح السلطة لكى ينصلح الناس ؟ أو نصلح الناس لكى تنصلح السلطة ؟

ما هويتنا ؟ .. وطنية مصرية ؟ .. قومية عربية ؟ .. أمة اسلامية ؟ وهل هذه الانتماءات متعارضة أو متكاملة ؟

فى الذاكرة تجارب قريبة متعارضة متصارعة .. المماليك ، الأتراك ، نابليون ، محمد على ، عرابى ، الانجليز .. فما الحل ؟ وما العمل ؟

فى هذه الفترة الشديدة الخطر ، عاش قاسم أمين ، وعاش ذلك الرعيل الذى أشرت اليه ..

وقد ذهب كل منهم ، فى ظروف شتى ، يضرب فى سبيل ...

منهم من نظر الى الخارج ومضى يحارب الاستعمار بالعمل السياسى المباشر لأنه رأس الداء ، ومنهم من نظر الى الداخل ورأى أن التجديد الدينى هو نقطة البدء فى بعث الأمة ، ومنهم من خاض معركة التعليم ، ومنهم من عمد الى أسلحة التعليم المستحدثة كالمسرح والصحافة ، ومنهم .. ومنهم ...

واختار قاسم أمين قضية بالغة الخطورة هى قضية المرأة . ولكن كل سطر كتبه فى هذه القضية نابض بالدليل على أن كل المعارك الأخرى والقضايا المطروحة كانت ملء قلبه وعقله .

★★★

ولد قاسم أمين فى الاسكندرية ، فى ديسمبر سنة ١٨٦٣ ، أو هذا على الأقل هو التاريخ الذى تشير اليه المصادر . اذ يظل الباحث يتساءل عن المسافة بين سنه الصغيرة والشهادات التى حصل عليها ، والمناصب التى تولاها ، برغم أنه كان من سلالات الأتراك الذوات الذين كانت تنفتح أمامهم الطرق الى الترقى فى سهولة ويسر ..

وكان أبوه محمد بك أمين ـ من أسرة تركية ، عندما كانت الأسرة التركية خصوصا تلك المتيسرة نوعا هى أرستقراطية العالم العربى كله . وهكذا كان محمد بك أمين كسائر الموظفين الأتراك الكبار ينتقلون بين المناصب فى مختلف أطراف العالم العربى الداخل فى دائرة الامبراطورية . فهو ـ محمد بك أمين ـ لم يولد فى تركيا ، ولكنه ولد فى « السليمانية » عاصمة المنطقة الكردية فى شمالى العراق حاليا . حيث كان ابن عمه يعمل واليا على المنطقة . وقد عاد الى استانبول حيث درس القانون ثم عاد الى السليمانية ليكون بدوره واليا .

وفى هذه الأثناء جاء محمد بك أمين فى رحلة الى مصر . وجاب

الدلتا والقاهرة والصعيد • وفى الصعيد تعرف الى أسرة مصرية أعجب بها وتزوج احدى بناتها ، وسافر بها الى مقر عمله ، وكانت له هناك زوجة تركية لم تنجب • فلما حملت زوجته المصرية بعد ذلك لأول مرة فرح فرحا شديدا ، وجاء بها الى مصر لتضع مولودها بين أهلها •• ولكن آلام الوضع فاجأت الزوجة فى الاسكندرية ، بعد وصولها على السفينة بقليل ، فوضعت فى الاسكندرية أول أبنائهما « قاسما » • وعاد محمد بك أمين الى السليمانية بزوجته المصرية وطفلهما قاسم ، وهناك ولدت ابنه الثانى ابراهيم •••

وكان محمد بك أمين فى اجازة من عمله فى استانبول عندما نشبت ثورة فى كردستان ، فلم يعد اليها • وسهلت له علاقاته العائلية أن تمنحه السلطات – كما كان يحدث كثيرا – اقطاعية واسعة فى شمالى الدلتا ، محافظة كفر الشيخ حاليا ، فجاء الى مصر لكى يستقر فيها ، ويستثمر اقطاعيته ، وكان قاسم وقتها فى الثامنة من العمر •••

وعاشت الأسرة زمنا فى الاسكندرية ، أقرب مدينة كبيرة الى الأملاك الجديدة ، ودخل قاسم مدرسة رأس التين ، ثم انتقلت الأسرة الى حى الحلمية بالقاهرة وانتقل هو الى المدرسة التجهيزية (الخديوية الثانوية حاليا) ، ثم دخل مدرسة الحقوق ، وحصل على الليسانس سنة ١٨٨١ وكان أول الدفعة ، وعمره طبقا للتاريخ الذى سبق ثمانية عشر عاما فقط •

وقد أرسله أبوه ليتمرن فى مكتب المحامى « مصطفى فهمى » الذى أصبح بعد ذلك رئيس وزراء طوال ثمانية عشر عاما متصلة تحت حكم الانجليز ، والذى صاهره بعد ذلك سعد زغلول حين تزوج ابنته صفية • ثم لم يلبث قاسم أمين أن سافر الى فرنسا فى بعثة ليدرس القانون •••

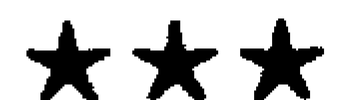
حضر قاسم أمين فى تلك الفترة مقدمات الثورة العرابيه وذهب الى قهوة متاتيا عند سور الأزبكية حيث عرف جمال الدين الأفغانى وتحلق مع شباب آخرين من حوله كسعد زغلول ٠٠ ورجال أكبر منه قليلا منهم محمد عبده وعبد الله النديم وأديب اسحق ٠٠٠

كتب عن هذه الفترة بعد ذلك يقول : « فى عهد الاستبداد ، فى الوقت الذى كانت فيه كلمة الخديو تكفى لاعدام من يغضب عليه ، فى تلك الأيام السود ، التى كانت حياة الانسان وحريته وأمواله مهددة بالضياع ، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه ضمانة تحميه ، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم الى صد ارادة الحاكم والتصريح بآرائهم » ٠٠

لا شك أن قاسم أمين قد امتزج بالعاطفة الوطنية المتحررة التى كانت من مقدمات الثورة العربية ، وبخاصة أنه عرف أقطابها عن كثب ، ولا شك أنه قد سافر الى فرنسا مبعوثا مفعما بآمال بلاده ٠

وفى باريس تابع تطور الأحداث المحزن : هجوم الانجليز على مصر ، وكسر الثورة العرابية ، والمحاكمات ، والفرار والاختفاء ٠ لقد أخفقت محاولة أخرى ٠٠٠

وجاء الأفغانى ومحمد عبده الى باريس منفيين ٠ وعندما أصدرا جريدة « العروة الوثقى » ساهم فيها معهما ، وأخذ يساعد محمد عبده على تعلم اللغة الفرنسية ٠ ثم لاحق الاضطهاد الدولى أنفاس الحركة الوطنية التى بدأت تتردد على صفحات « العروة الوثقى » فى باريس حتى أخمد هذه الأنفاس ، وأغلقت « العروة الوثقى » بعد صدورها بأشهر قليلة ٠٠



نستطيع أن نتصور قاسم أمين ، معذبا في بلاد الغربة بهذه الشجون كلها .. هو الذى ترك بلاده تنبض بالآمال ، وتموج بحركة وطنية وتحريرية مباشرة .. وها هو ذا يرى على البعد أنفاس هذه الحركة قد أخمدت ودولة كبرى قادرة قد جثمت على صدر هذه الأحلام التى اختنقت ...

وها هو ذا يعقد المقارنات أو يبدأ في تأمل الأشياء من زوايا جديدة « لو قورن بين مصر ومدن الدول الأخرى مثل لندن وباريس لظهرت في حالة محزنة ، كما لو وضعت سائلة ذات أطمار قذرة بالية في جانب عروس متحلية بأفخر الملابس وأغلى الحلى وأبهاها . وفي الحقيقة أن مصر بلاد فقيرة جدا نصف أهلها ـ وهم الفلاحون ـ يعيشون بالشيء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعا » .

وهو بحكم ثقافته الشرقية ، واختلاطه بمحمد عبده المحارب في ساحة التجديد الديني ، يبدأ يدرس ما في بلاده من عادات وتقاليد ، وأيها من الدين الصحيح وأيها دخيل ؟ .. فهو يكتب فيما بعد في كتابه « تحرير المرأة » خاطرا ألح عليه كثيرا : « لم يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل ، وأنه يلزمه أن يحافظ عليها الى الأبد ؟ .. مع أنه هو وعوائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل في كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله في خلقه ، اذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم ، والوقوف والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ » .

واذا كان لكل نفس طبيعتها وميولها ، فلا شك أن قاسم أمين لم يكن صاحب تلك الطبيعة التى تجعله محاربا كسعد زغلول ، أعز أصدقائه مثلا ، ولكنه كان مرهف الحس للفنون والجماليات والقضايا الاجتماعية ، فيعلن أنه « من أكبر أسباب انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة . التمثيل والتصوير والموسيقى، هذه الفنون ترمى جميعها الى غاية واحدة هى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، واهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور » .

وبهذا التكوين وهـذه الميول ، يتعرض لتجربة يتعرض لها كثيرون من الشبان الشرقيين الذين يسافرون الى أوربا ، تجـربة التعرف الى المرأة الأوربية · فبعض المراجع تحدثنا عن فتاة فرنسية اسمها « سلافا » أغلب الظن أنه كانت بينه وبينها قصـة هوى مشبوب ·

على أنه فيما يبدو لم يعرف سلافا خلال علاقة لاهية ، كمـا يحدث لآخرين ، انما كانت بينهما علاقة ملكت عليه حواسه ، تفهم هذا من سـطور فى كتاباته عن الحب ، سـطور فيها احاطة بكل ما يعـرض للمرء فى حالات الوجد العنيف ··· فالحب ، كمـا يصفه : « ··· مرض يقاسي منه العاشق عذابا يظهر باحتقان فى مخه وخفقات فى قلبه واضطراب فى أعصابه واختلال فى نظـام حياته ، ويظهر على الأخص فى الأكل والنوم والشغل ، ويجعله غير صالح بشيء سوى أن يقضى أوقاته شاخصا الى صـورة محبوبته مستغرقا فى عبـادتها ، ذاكرا أوصافها وحـركاتها واشـارتها وكلماتها ·· نظرة من عيون محبوبته تملأ قلبه فرحـا ، وتجعله يتخيل أنه يمشى فى طريق مفروش بالورد ، أو أنه راكب سحابة أو طائر فى المرتفعات العالية ·· فى هذه اللحظة يكون أسعد من أكبر ملوك الأرض ، فاذا انقضت ، عاد الى ما كان فيه من عذاب وآلام » ·

·· تدقيق لا يترك شكا فى سبق معاناة صاحبه ، وأسلوب يذكرنا بأسلوب الكاتب الأندلسى القديم « ابن حزم » فى كتاب « طوق الحمامة » ··

وسواء أكانت هناك سلافا أم لم تكن فلا شك أن قاسم أمين قد استوقف نظره بوجه خاص وضع المرأة فى المجتمع المتقدم ، واكثر من ذلك : عـلاقة المرأة بالرجل ، والمعـانى العميقة للحب

وللزوجية .. ففي هـذا المجـال نجده يكتب صفحات من أجمـل صفحات كتابه هذا عن تحرير المرأة ..

« اللذة الجسمانية المتحدة في النوع مهما تخالفت في الأفراد فهي دائما واحدة . فان أفراد اللذة في النوع تتشابه الى حد تكاد لا تتميز الا باختلاف الزمان أو المكان مثلا ، فما يحصل منها أولا هو ما يحصل ثانيا وثالثا ورابعا .. وهكذا ..

« ومن البدهي أن تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظر أو لذة سمع أو لذة ذوق أو لذة لمس يفضي في الغالب الى فقد الرغبة فيها ، فيأتي زمن لا تتنبه الأعصاب لها لكثرة تعودها اياها . والأمر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية . هذه اللذة في طبيعتها يمكن تجددها في كل آن . تأمل في مسامرة صديقين تجد أنها كنز سرور لا يفنى متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر فيسرى عقلهما من موضوع لموضوع ... كل عمل أو فكر أو حادث أو اختراع يكسب عقلهما غذاء جديدا ، ويفيد أنفسـهما لذة جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ، ويزيد في رابطة الألفة بينهما عقـدة جـديدة .

« ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقي على الانسـان وكيف أن العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من أكبر السعادات في هذه الدنيا . فان كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها ..

« فهذا الحب لا يمكن أن يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب في التربية والتعليم . ويجب ألا يفهم أن الرجل المتعلم اذا لم يحب زوجته فهي يمكنها أن تحبه . فان توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم ، لأن الحب الحقيقي الذي عرفت عنصريه

المادى والمعنوى لا يبقى الا بالاحترام · والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه · والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها ·

« سل جمهور المتزوجين هل هم محبوبون من نسائهم ؟ يجيبوك : نعم · لكن الحقيقه غير ما يظنون · انى بحثت كثيرا فى عائلات مما يقال انها فى اتفاق تام ، فما وجدت الى الآن زوجا يحب امرأته ولا امرأة تحب زوجها · أما هذا الاتفاق الظاهرى الذى يشاهد فى كثير من العائلات فمعناه أنه لا يوجد شقاق بين الزوجين ·· اما لأن الزوج تعب وترك ، واما لأن المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه ، واما لأنهما كليهما جاهلان لا يدركان قيمة الحياة · وهذا الحال الأخير هو حال أغلب الأزواج المصريين ·

« ولا أرى ما يقرب من السعادة الا فى هذا النوع الأخير . وان كان سعادة سلبية لا قيمة لها · أما النوعين الأولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال هو فناء أحد الزوجين فى سبيل ابقاء الآخر · وغاية ما يمكن أن أسلم به هو أنه قد يشاهد فى عدد قليل من الأزواج شىء يقرب من المودة يظهر فى بعض الأحيان ثم يختفى · وهو استثناء يؤيد القاعدة وهى عدم الحب · عدم الحب من طرف الزوج لأن امرأته متأخرة عنه فى العقل والتربية تأخرا فاحشا بحيث لا يكاد توجد مسألة لا يمكن أن يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل · ولا يكاد يوجد أمر يتفقان فى الحكم عليه برأى واحد · ولأنها بعيدة عن العواطف والمعانى والأشغال التى يميل اليها ومغمورة فى شئون ليس لها فى ميله نصيب· حتى انها فى الأمور التى هى من عملها ، وترى أنها خلقت لأجلها ، لا يرى منها زوجها ما يرون نظره · فأكثر النساء لم يتعودن تسريح شعورهن كل يوم · ولا الاستحمام أكثر من مرة فى الأسبوع · ولا يعرفن استعمال السواك · ولا يعتنين بما يلى البدن من ملابس مع أن

نظافتها لها أعظم تأثير فى استمالة الرجل ، ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج ، وكيف يحافظ عليها وكيف يمكن تنميتها ٠ ذلك لأن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة ، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور ، فاذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت فى الغالب بعكس ذلك ٠

« وأما عدم الحب من طرف المرأة فلأنها لا تتذوق معنى الحب٠ ولو أردنا أن نحلل احساسها بالنسبة لزوجها نجد أنه يتركب من أمرين : ميل اليه من حيث هو رجل أبيح لها أن تقضى معه شهواتها، وشعور بأن هذا الرجل نافع للقيام بحاجات معيشتها ٠ أما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت كل منهما الأخرى امتزاجا يؤلف منهما موجودا واحدا ٠٠ فهى بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض ٠٠ » ٠

واذا كنت قد أسهبت فى نقل هـذه الصفحات بالذات من كتاب « تحرير المرأة » فالسبب هو أننى أعلق عليها أهمية خاصة فى النظر الى قاسم أمين والى كتابه ٠٠٠

ذلك أننى أعتقد أن القيمة الكبرى للكتاب ليست فيما « طالب به » فى النهاية ٠ فما الذى طالب به ، بعد كل شىء ؟ ٠٠

تعليم المرأة حتى التعليم الابتدائى ؟ أن تسير المرأة فى الشارع سافرة الوجه والكفين فقط ؟ تعـديل قوانين الزواج والطـلاق تعديلات لم تدخل بعد) ؟ وبرغم خطورة هذه « المطالب » فى ذلك الوقت ، أعتقد أنه لو كان الأمر هو مجرد المطالبة بها ، لمـا ثارت عليه هذه الضجة ، ولمـا تعرض المؤلف لما تعـرض له من حملات ومن صنوف التشهير ٠٠

ان القيمة الكبرى للكتاب فيما يقدمه ـ تحليل جرىء ونظرة نفاذة فى صميم وضـع المرأة ، وعـلاقات المرأة بالرجل ، ومعنى الزواج ، والأمومة ، والأبوة ٠

هذه العلاقات التى ركدت واستقرت مئات السنين على شكل معين ، لم يأت قاسم أمين ويتحدث عنها « من الخارج » مطالبا فقط بأن تتعلم المرأة القراءة والكتابة وتكشف عن وجهها وكفيها ‥ ولكنه غاص فى أعماقها غوصا شديدا · وهز قناعات ومسلمات لدى الرجال والنساء على السواء حول قضايا بالغة الحساسية ···

انه يكتب كلاما « يجرح » به شعور كل رجل وامرأة ! ‥

يقول لكل رجل وامرأة : ليس ما بينكما هو الحب · ما يعيشون فيه هو الزواج بمعناه الحقيقى · ليس صحيحا أنك تحب امرأتك ، أو أنك تحبين زوجك !

هذه الصفحات التى اخترتها · ولها نظائر كثيرة ـ نجد قاسم أمين فيها يتحدث بصراحة ، وجرأة ولباقة معا عن حياة المرأة والرجل ‥ عقليا ونفسيا وجنسيا وشعوريا واقتصاديا ، لا يعفى من تحليله الجارح حتى ملابس المرأة الداخلية !

ربما كان ما حظى بالجدل حين شنت عليه الحملات هو تعليم المرأة وسفورها وطلاقها وزواجها لأن هذه فى حد ذاتها لم تكن بالأمور البسيطة ‥ يكفى أن نذكر أن المرأة لم تكشف وجهها الا بعد ثورة ١٩١٩ ، فى سنة ١٩٢٢ ، وكان يحدث أحيانا أن يقذف الناس فى الشارع المرأة السافرة الوجه ، أى بعد ربع قرن من صدور الكتاب ، وأن أول مدرسة ثانوية للبنات وعلى نظام مدارس البنين ، للمواد الدراسية العادية ، لا النسائية فقط ، لم تنشأ الا سنة ١٩٢٥ ، وأن تقييد حق الرجل فى الطلاق وفى ألا يقع الطلاق الا أمام القاضى ، لم يقر بعد برغم مرور سبعين سنة ‥ بل انه يعنى أيضا أن المرأة « لن تنال ما تستحق من الاعتبارات والكرامة الا اذا منحت حق الطلاق » ·

ربما كان هذا كله هاما وخطيرا ولكن « الجرح » الذى هز

المجتمع هو هذه الصورة الجارحة المعتمة التى قامت بتعرية أخفى العلاقات وأهمها فى المجتمع ٠

وحين نقرأ مثل هذه التحليلات فى الكتاب ، نتساءل عما اذ كان قاسم أمين قد قرأ « بيت الدمية » لهنريك ابسن » و « ومهنة مسز دارين » لبرنارد شو ٠ ولكنه على أى حال لم يتأخر كثيرا عن معالجة هذه القضايا من هذه الزوايا بالذات ٠ فالمسرحية الأولى صدرت سنة ١٨٧٩ والثانية سنة ١٨٩٣ ٠ وقد قضت أجيال قبل أن يكتب كاتب كبير مثلا سلامة موسى فى هذه المعانى ، ويعد جديدا وجريئا ٠

ولا ينقص قاسم أمين الحس الاجتماعى ، فهو يسجل فى بعض تحليلات الكتاب هذه الملاحظة الذكية « ٠٠٠ يمكن أن يقال انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها ٠ ان آخر طبقة من نساء الأمة ، وهى التى تسكن الأرياف ، هى أكملهن عقلا بنسبة حالها ٠ فالمرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح ٠ مداركهما فى مستوى واحد لا يزيد أحدهما على الآخر تقريبا ، مع أننا نرى أن المرأة فى الطبقة العالية أو الوسطى متأخرة على الرجل بمسافات شاسعة ٠ ذلك لأن الرجال فى هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة ، بل وقفت فى الطريق ٠ وهذا الاختلاف هو أكبر سبب فى شقاء الرجل والمرأة معا » ٠٠

أمر آخر يجعل هذه التحليلات والتأملات التى يسوقها قاسم أمين أهم فى فهمه من « المطالب » التى نادى بها ، هو أن القارىء المتأمل سوف يلاحظ أن ما طالب به فعلا لم يكن كل ما يتمنى أن يطالب به ٠ انه طالب بما تصور أنه أقصى ما يستطيع أن يتحمله المجتمع ، ولكن الصور التى يعرفها والملاحظة التى يسوقها لا تترك

مجالا للشك فى أنه كان يطلب للمرأة التعليم بغير حد ، والمساواة الفعلية بالرجل فى شتى المجالات ٠

لعلنى استطردت استطرادا سريعا من حيث تركنا قاسم أمين شابا فى باريس يتأمل ويقارن ، الى كتابه الذى صدر بعد ذلك بزمن ٠ ربما كان هذا احساسا بأن هذه الفترة هى التى بلورت أفكاره الأولى ٠

أمر آخر ساهم فى بلورة أفكاره بعد ذلك ٠ فقد عاد من باريس والتحق بسلك النيابة العامة والقضاء ، حتى أصبح مستشارا فى محكمة الاستئناف سنة ١٨٩٢ ٠ وخلال ذلك عمل فى مدن أخرى كثيرة ٠ ونظر قضايا مدنية واجتماعية كثيرة ٠ ومرت به صور شتى واقعية من صميم المجتمع المصرى ٠ الصورة التى لا يراها ابن طبقته فى « الصالونات » التى يرتادها ٠

★★★

كان لابد أن يثير مثل هذا الكتاب ، من مثل هذا الرجل ، الضجة التى أثارها ٠ فلا يكاد يوجد قلم كبير أو صغير دون أن يساهم المعركة ٠ ولا يكاد يوجد مطعن دينى أو خلقى لم ينسب الى المؤلف ٠ وتحكمت السياسة الى درجة ما فى التيارات التى هبت : فنجد جريدة وطنية كاللواء يفتح مصطفى كامل صفحاتها للهجوم على قاسم أمين وآرائه ٠

وكان المطعن الدينى أخطر المطاعن ٠

والغريب أن اول الصحف التى تجرأت على الوقوف الى جانب قاسم أمين كانت « المنار » التى كان يصدرها محمد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده ، فتقول : « اذا توهم بعض الناس أن ما ورد فى كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها الرجال دفعا للفتنة ، هو من الأحكام الدينية التى لا يجوز

غيرها ، فاننا نقول ان هذا الاعتراض مردود بأن الأحكام الشرعية جاءت فى الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق ووكلت فهم الجزئيات الى أنظار المكلفين ، ووضعتها تحت اجتهادهم ، وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبى بين أصحابه وأتباعه » ٠

وليس هذا غريبا ٠ ولعل مهمة قاسم أمين كانت تصبح أكثر صعوبة لو لم يسبقه الشيخ محمد عبده الى معركة تطهير الدين من الخرافات التى علقت به عبر عصور الانحطاط ٠

لم يعش قاسم أمين طويلا ٠ لقد أصدر بعد ذلك كتابا حول نفس القضية بعنوان « المرأة الجديدة » لم يتراجع فيه خطوة ازاء الحملات ، بل زاد تأكيدا لرأيه ، وطالب صراحة ببعض ما كان لا يصرح به كحق المرأة فى العمل وفى التعليم بشتى مراحله ٠ وساهم فى الحياة العامة مساهمات قيمة كان أبرزها دوره الى جانب صديقه سعد زغلول فى تأسيس الجامعة المصرية ٠ ومات قاسم أمين سنة ١٩٠٨ وهو فى الخامسة والأربعين من العمر ٠

ولكن حركة التنوير كانت قد بدأت تلتقط أنفاسها من جديد ٠ وبعد موته بأحد عشر عاما نشبت ثورة أخرى ، قادها رفاق شبابه الذين شاهدوا معه مصرع الثورة العرابية ٠

أحمد بهاء الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كل مسألة من المسائل التى أجملتها فى هذه الأسطر القليلة يصح أن تكون موضوعا لكتاب على حدة . وقد تعمدت الاختصار فيها حتى ترتبط تلك المسائل بعضها ببعض كأنها حلقات سلسلة واحدة . وغاية ما أريد هو أن أستلفت الذهن الى موضوع قل عدد المفكرين فيه ، لا أن أضع كتابا يوفى الكلام فى شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانسانى ، وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ، ونما نباتها فى أذهان أولادنا ، وظهرت ثمراتها ، وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها .

ويرى المطلع على ما أكتبه أنى لست ممن يطمع فى تحقيق اماله فى وقت قريب ، لأن تحويل النفوس الى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه ، وانما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية . وكل تغيير يحدث فى أمة من الأمم وتبدو ثمرته فى أحوالها فهو ليس بالأمر البسيط ، وانما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج فى نفس كل واحد شيئا فشيئا ، ثم تسرى من الأفراد الى مجموع الأمة ، فيظهر التغيير فى حال ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة .

وما نحن فيه اليوم ليس فى الطاقة البشرية تغييره فى الحال. ليس من العار علينا أننا وجدنا فى مثل هذه الحالة ، لأن كل عصر لا يسأل الا عن عمله . وانما العار أن نظن فى أنفسنا الكمال ، وننكر نقائصنا ، وندعى أن عوائدنا هى أحسن العوائد فى كل

زمان ومكان ، وأن تعانده الحق ، وهو واحد لا يحتاج في تقريره الى تصديق منا به ، وكل ما نقوله أو نفعله لانكاره لا يؤثر فيه بشيء ، وانما يؤثر فينا أثر الباطل في أهله ، ويقوم حجابا بيننا وبين اصلاح أنفسنا ، اذ لا يمكن لأمة أن تقوم باصلاح ما الا اذا شعرت شعورا حقيقيا بالحاجة اليه ثم بالوسائل الموصلة له ٠

لا أظن أنه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك في أن أمته في احتياج شديد الى اصلاح شأنها ٠ فهؤلاء المتعلمون الذين أخاطبهم اليـوم أقول ان عليهم تبعة ما نألم له في عصرنا هذا ، ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم أن يسجلوا على أنفسهم وعلى أمتهم العجز واليأس والقنوط ٠ فان ذلك صورة من صور الكسل ، او مظهر من مظاهر الجبن ، أو حال من أحوال من لا ثقة له بنفسه ولا بأهله ولا بملته ولا بشرعه ولا بالهه ، وأراهم بهذا يستسلمون الى تيارات الحوادث تتصرف فيهم كما تتصرف في الجماد والنبات، وتقذف بهم الى حيث يحبون أو لا يحبون ٠

قد طرقت بابا من أبواب الاصلاح في أمتنا ، والتمست وجها من وجوهه في قسم من أفراد الأمة له الأثر العظيم في مجموعها ، وأتيت في ذلك بما أظنه صوابا ، فان أخطأت فلي من حسن النية ما أرجو معه غفران سيئة خطئي ، وان أصبت ــ كما أظن ــ وجب على أولئك المتعلمين أن يعملوا على نشر ما أودعته في هذه الوريقات وتأييده بالقبول والعمل ٠

تمهيد

حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية

(تابعة لحالة الآداب فى الأمة)

انى أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معى فى حالة النساء المصريات ، وأنا على يقين من أنه يصل وحده الى النتيجة التى وصلت اليها ، وهى ضرورة الاصلاح فيها . هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة ، كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ، حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى ، وزاحمت غيرها ، وتغلبت عليه ، وصارت تشغلنى بورودها ، وتنبهنى الى مزاياها ، وتذكرنى بالحاجة اليها ، فرأيت أن لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر .

ومن أحكم الأشياء التى يدور عليها تقدم النوع الانسانى ويؤكد حسن مستقبله هذه القوة الغريبة التى تدفع الانسان الى نشر كل فكرة علمية أو أدبية متى وصلت الى غاية نموها الطبيعى فى عقله واعتقد أنها تساعد على تقدم أبناء جنسه ، ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها . تلك قدرة يدرك سلطانها من وجد فى نفسه شيئا منها . يشعر أنه ان لم يسابقها الى ما تندفع اليه ، ولم يستنجد بقية قواه لمعانتها على استكمال ما تهيأت له ، غالبته ان غالبها ، وقاومته ان قاومها وقهرته ان عمل على قهرها ، وظهرت فى غير ما يحب من مظاهرها ، كأنها الغاز المحبوس لا يكتم

بالضغط ، ولكن الضغط يحدث فيه فرقعة قد تأتى على هلاك ما حواه ٠

والبراهين على ذلك كثيرة فى الماضى ، فان تاريخ الأمم مملوء بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التى قامت فى سبيل استعلاء فكر على فكر ومذهب على مذهب ، وكانت الغلبة تارة للحق وأخرى للباطل ، وكانت الأمم الاسلامية على هذه الحال فى القرون الأولى والوسطى ٠ ولم يزل الأمر على ذلك أو يزيد فى البلاد العربية التى يصح أن يقال فيها ان حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ والصواب : جهاد داخلى بين أفراد الأمة فى جميع فروع المعارف والفنون والصنائع ، وجهاد خارجى بين الأمم بعضها مع بعض ، خصوصا فى هذا القرن الذى ألغت فيه الاختراعات الحديثة المسافات والأبعاد ، وهدمت الحدود الفاصلة والأسوار المانعة ، حتى ان الأشخاص الذين ساحوا فى جميع أنحاء الأرض يعدون بالألوف ٠ واذا ألف رجل من مشاهيرهم كتابا ترجم فى أثناء طبعه وظهر فى خمس أو ست لغات فى آن واحد !

ولم يركن الى حب السكينة الا أقوام على شاكلتنا ، فقد أهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالأرض البائرة التى لا يصلح فيها نبات ، وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعده أهل الوقت حديثا غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الأولى أو قضت به المصالح فى هذه الأزمنة ٠

وكثيرا ما يكتفى الكسول وضعيف القوة فى الجدل بأن يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد أن يدفعه ، فيقول تلك بدعة فى الاسلام ٠ وما يرمى بهذه الكلمة الا حب التخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل فى البحث أو الاجراء : كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم ، وأقالهم من أحكام النواميس الطبيعية التى يخضع لسلطانها النوع الانسانى وسائر المخلوقات الحية

سيقول قوم ان ما أنشره اليوم بدعة · فأقول : نعم · أتيت ببدعة ، ولكنها ليست فى الاسلام ، بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها ·

لم يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل ، وأنه يلزمه أن يحافظ عليها الى الأبد ؟ ولم يجر على هذا الاعتقاد فى عمله مع أنه هو وعوائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل فى كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله فى خلقه ، اذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن اصطلاح الأمة على سلوك طريق خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان ؟ من ذا الذى يمكنه أن يتصور أن العوائد لا تتغير بعد أن يعلم أنها ثمرة من ثمرات عقل الانسان وأن عقل الانسان يختلف باختلاف والأماكن والأزمان ؟ المسلمون منتشرون فى أطراف الأرض ، فهل هم أنفسهم متحدون فى العادات وطرق المعاش ؟ من ذا الذى يمكنه أن يدعى أن ما يستحسنه عقل السودانى يستحسنه عقل التركى أو الصينى أو الهندى ، أو أن عادة من عادات البدوى توافق أهل الحضر ، أو يزعم أن عوائد أمة من الأمم ــ مهما كانت ــ بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير ؟

والحقيقة أن لكل أمة فى كل مدة من الزمن عوائد وآدابا خاصة بها موافقة لحالتها العقلية ، وأن تلك العوائد والآداب تتغير دائما تغيرا غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الأدبية والعقائد الدينية والنظامات السياسية وغير ذلك ، وأن كل حركة من حركات العقل نحو التقدم يتبعها حتما أثر يناسبها فى العادات والآداب · وعلى ذلك يلزم أن يكون بين عوائد السودانى والتركى مثلا من الاختلاف بقدر ما يوجد بين مرتبتهما فى العقل ، وهو الأمر المشهور الذى لا ريبة فيه · وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصرى والأوربى ·

ولا يمكن أن يتصور أحد أن العادات التي هي عبارة عن طريق سلوك الانسان فى نفسه ومع عائلته ومواطنيه وأبناء جنسه تكون فى أمة جاهلة أو متوحشة مثلما تكون فى أمة متمدنة ، لأن سلوك كل فرد منها انما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته ·

ولهذا الارتباط التام بين عادات كل أمة ومنزلتها من المعارف والمدنية نرى ان سلطان العادة أنفذ حكما فيها من كل سلطان ، وهي أشد شئونها لصوقا بها وأبعدها عن التغيير ، ولا حول للأمة عن طاعتها الا اذا تحولت نفوس الأمة وارتفعت أو انحطت عن درجتها فى العقل ، ولهذا نرى أنها تتغلب دائما على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع · ويؤيد ذلك ما نشاهده كل يوم فى بلادنا من أن القوانين واللوائح التى توضع لاصلاح حال الأمة تنقلب فى الحال الى آلة جديدة للفساد · وليس هذا بغريب· فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه ·

وهذا هو الأصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخى من التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة وتوحشها ، وبين ارتقاء المرأة وتقدم الأمة ومدنيتها · فقد علمنا أن حال المرأة فى ابتداء تكون الجمعيات الانسانية كانت لا تختلف عن حالة الرقيق فى شيء ، وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلا تحت سلطة أبيها ثم زوجها ثم من بعده أكبر أولادها · وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ، ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخولة لمالكها · وكان من المباح عند العرب قبل الاسلام أن يقتل الآباء بناتهم ، وأن يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعى ولا عدد محدود · ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل افريقيا وأمريكا المتوحشة · وبعض الأمم الآسيوية يعتقد أن المرأة ليس لها روح خالدة ، وأنها لا ينبغى

أن تعيش بعد زوجها ، ومنهم من يقدمها الى ضيفه اكراما له كما يقدم له أحسن متاع يمتلكه ٠

كل هذا يشـاهد فى الجمعيات الناشئة التى لم تقـم على نظامات عمومية بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة ، والقوة هى القانون الوحيد الذى تعرفه ٠ وهكذا الحال الآن فى البلاد التى تدار بحكومة استبدادية لأنها تحكم كذلك بقانون القوة ٠

أما فى البلاد التى ارتقت الى درجة عظيمة من التمدن فانا نرى النساء أخذن يرتفعن شيئا فشيئا من الانحطاط السابق ، وصرن يقطعن المسافات التى كانت تبعدهن عن الرجال : هذه تحبو وتلك تخطو وهذه تمشى وتلك تعدو ، كل ذلك بحسب حال الجمعية التى تنتسب اليها ودرجة المدنية فيها ٠ فالمرأة الأمريكية فى أول صف، ثم تتلوها الانجليزية ، وتأتى بعدها الألمانية ، وتليها الفرنسية ثم النمساوية ثم التليانية ثم الروسية الخ ٠٠٠ كلها نفوس شعرت أنها حقيقة بالاستقلال ، فهى تبحث عن الوسائل لنيله ، وأنهـا جديرة بالحرية فهى تسعى للوصول اليها ، وأنها من نوع الانسان فهى تطالب بكل حق للانسان ٠

والغربى الذى يحب أن ينسب كل شىء حسن الى دينه يعتقد أن المرأة الغربية ترقت لأن دينها المسيحى ساعدها على نيل حريتها، ولكن هذا الاعتقاد باطل ، فان الدين المسيحى لم يتعرض لوضـع نظام يكفل حرية المرأة ولم يبين حقوقها بأحكام خاصة أو عامة ، ولم يرسم للناس فى هذا الموضوع مبادىء يهتدون بها ٠ وقد أقام هذا الدين فى كل أمة دخل فيها بدون أن يترك أثرا محسوسا فى الأخلاق من هذه الجهة ، بل تشكل نفسه بالشكل الذى أفادته اياه أخلاق الأمم وعادتها ٠ ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم فى مقدمة الأرض ٠

سبق الشرع الاسلامى كل شريعة سواء فى تقرير مساواة المرأة للرجل ، فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم ، وخولها كل حقوق الانسان ، واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل فى جميع الأحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير أن يتوقف تصرفها على اذن أبيها أو زوجها . وهذه المزايا التى لم تصل الى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات - كلها تشهد على أن من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل ان شريعتنا بالغت فى الرفق بالمرأة فوضعت عنها أحمال المعيشة ، ولم تلزمها بالاشتراك فى نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافا لبعض الشرائع الغربية التى سوت بين الرجل والمرأة فى الواجبات فقط ، وميزت الرجل فى الحقوق .

والميل الى تسوية المرأة بالرجل فى الحقوق ظاهر فى الشريعة الاسلامية حتى فى مسألة التحلل من عقدة الزواج ، فقد جعلت لها فى ذلك طرقا جديرة بالاعتبار سيأتى الكلام عنها خلافا لما يتوهمه الغربيون ويظنه بعض المسلمين .

ولم أر الا مسألة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهى تعدد الزوجات . والسبب فى ذلك واضح يتعلق بمسألة النسب التى لا يقوم للزواج حياة بدونها ، سيأتى الكلام عليها أيضا فيما يلى . وبالجملة فليس فى أحكام الديانة الاسلامية ، ولا فيما ترمى اليه من مقاصدها ، ما يمكن أن ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة ، بل الأمر بالعكس فانها أكسبتها مقاما فى الهيئة الاجتماعية .

ولكن وا أسفاه ! قد تغلبت على هذا الدين الجميل أخلاق سيئة ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الاسلام ، ودخلت فيه حاملة ما كانت عليه من عوائد وأوهام ، ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك

الأمم حدا يصل بالمرأة الى المقام الذى أحلتها الشريعة فيه ، وكان أكبر عامل فى استمرار هذه الأخلاق توالى الحكومات الاستبدادية علينـــا ٠

تجردت الجمعيات الاسلامية ـ على اختلاف الأزمان والأماكن ـ من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول المحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام ، بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائما ، فكان لسلطانهم وأعوانه سلطة مطلقة ، فحكموا كيف شاءوا بلا قيد لا استشارة ولا مراقبة ، وأداروا مصالح الرعية بدون أن يكون لها صوت فيها ٠

نعم كان الحاكم صغيرا أو كبيرا ملزما باتباع العدل واجتناب الظلم ، لكن من المجـرب أن السلطة غير المحدودة تغرى بسـوء الاستعمال اذا لم تجد حدا تقف أمامه ورأيا يناقشها وهيئة تراقبها٠ ولهذا مضت القرون على الأمم الاسلامية وهى تحت حكم الاستبداد المطلق ، وأساء حكامها فى التصرف ، وبالغوا فى اتباع أهوائهم واللعب بشئون الرعاية ، بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة ، ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة الى غالبهم ٠

اذا غلب الاستبداد على أمة لم يقف أثر فى الأنفس عندما هو فى نفس الحاكم الأعلى ، ولكنه يتصل منه بمن حوله ، ومنهم الى من دونهم ، وينفث روحه فى كل قوى بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيها ، يسرى ذلك فى النفوس رضى الحاكم الأعلى أو لم يرض ٠

كان من أثر هذه الحكومات الاستبدادية أن الرجل فى قوته أخذ يحتقر المرأة فى ضعفها ٠ وقد يكون من أسباب ذلك أن أول أثر يظهر فى الأمة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق ٠

قد يمكن أن يتوهم من أول وهلة أن الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ويميل الى الشفقة لما يقاسيه من المصائب التى تتوالى عليه ، لكن المشاهد يدل على ان الأمة المظلومة لا يصلح جرها ولا تنفع أرضها لنمو الفضيلة ، ولا يربو فيها الا نبات الرذيلة ٠ وكل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين ـ السابقين ـ وما العهد منهم ببعيد ـ يعلمون أن شيخ البلد الذى كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مائة من الأهالى ، والعمدة الذى كان يضرب مائة كرباج كان عند عودته الى بلدته ينتقم من مائة فلاح !

في طبيعة هذه الحالة أن الانسان لا يحترم الا القوة ولا يردع الا بالخوف ٠

ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها ، وأخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان ، وداس بأرجله على شخصيتها ٠ عاشت المرأة فى انحطاط شديد ـ أيا كان عنوانها فى العائلة زوجة أو أما أو بنتا ـ ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأى ، خاضعة للرجل، لأنه رجل ولأنها امرأة ٠ فنى شخصها فى شخص الرجل ، ولم يبق لها من الكون ما يسعها الا ما استتر من زوايا المنازل ، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات ، واستعملها الرجل متاعا للذة ، يلهو بها متى أراد ، ويقذف بها فى الطريق متى شاء ، له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شىء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه !

من احتقار الرجل للمرأة أن يملأ بيته بجوار بيض أو سود أو بزوجات متعددة يهوى الى أيهن شاء منقادا الى الشهوة مسوقا بباعث الترف وحب استيفاء اللذة غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما أوجبه عليه من العدل فيما يأتى ٠٠٠

من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب ...

من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه ...

من احتقار المرأة أن يعين لها محافظا على عرضها مثل أغا أو مقدم أو خادم يراقبها ويصحبها أينما تتوجه ...

من احتقار المرأة أن يسجنها فى منزل ويفتخر بأنها لا تخرج منه الا محمولة على النعش الى القبر ...

من احتقار المرأة أن يعلن الرجال أن النســاء لسن محلا للثقة والأمانة ...

من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل فى أى شيء يتعلق بها : فليس لها رأى فى الأعمال ، ولا فكر فى المشارب ، ولا ذوق فى الفنون ، ولا قدم فى المنافع العامة ، ولا مقام فى الاعتقادات الدينية ، وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملى ...

ولست مبالغا ان قلت ان ذلك كان حال المرأة فى مصر الى هذه السنين الأخيرة التى خفت فيها نوعا سلطة الرجل على المرأة تبعا لتقديم الفكر فى الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم ، ورأينا النساء يخرجن لقضاء حاجاتهن ، ويترددون على المتنزهات العمومية لاستنشاق الهواء ، وترويح النفوس بتسريح النظر فى الكائنات التى عرضها الصانع جل شانه على نظر كل مخلوق رجلا كان أو امرأة . وكثير منهن يذهبن مع رجالهن الى السياحة فى بعض البلاد الأخرى ، وكثير من الرجال قد أعطوا نساءهن مقاما فى الحيــاة العائلية .

وهذا انما طرأ على بعض الرجال من نشأة الثقة فى نفوس أولئك الرجال بنسائهم واطمئنانهم الى أمانتهن : وهو احترام جديد للمرأة .

نعـم ، لا ننكر أن هذا التغيير لا يخلو من وجوه انتقاد ، لكن سبب الانتقاد فى الحقيقة ليس هو نفس التغيير ولكنه الأحوال التى احتفت به ، وأهمها رسوخ عادة الحجاب فى أنفس الجمهور الأعظم، ونقص تربية النساء • فلو كملت تربية النساء على مقتضى الدين وقواعد الأدب ، ووقف بالحجاب عند الحد المعروف فى أغلب المذاهب الاسلامية لسقطت كل تلك الانتقادات ، وأمكن أن تنتفع الأمة بجميع أفرادها نساء ورجالا •

تربيـــة المـــرأة

المـــرأة ، وما أدراك ما المـــرأة • انسان مثل الرجل • لا تختلف عنه فى الأعضاء ووظائفها ، ولا فى الاحساس ولا فى الفكر ولا فى كل ما تقتضـــيه حقيقة الانســـان من حيث هو انســـان ، الا بقدر ما يستدعيه اختلافهما فى الصنف •

فاذا فاق الرجل المرأة فى القوة البدنية والعقلية فذلك انما لأنه اشتغل بالعمل والفكر أجيالا طويلة كانت المرأة فيها محرومة استعمال القوتين المذكورتين ، ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف فى الشدة والضعف على حسب الأوقات والآماكن •

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون أن تربية المرأة وتعليمها غير واجبين ، بل انهم يتساءلون هـــل تعليم المـــرأة القراءة والكتـــابة مما يجوز شرعا أو هو محرم بمقتضى الشريعة ؟

وأتذكر أنى أشرت يوما على أب ، وقد رأيت معه بنتا بلغت من العمر تسع سنوات أعجبنى جمالها وذكاؤها ، بأن يعلمهـــــا فأجابنى : « وهل تريد أن تعطيها وظيفة فى الحكومة ؟ » فاعترضت عليه قائلا : « وهل فى مذهبك ألا يتعلم الا الموظفون ؟ » فأجابنى : « انى أعلمها جميع ما يلزم لادارة منزلها ، ولا أفعل غير ذلك » • قال هذا على وجه يشعر أنه لا يحب المناقشة فى رأيه • ويعنى هذا الأب العنيـــد بادارة المنزل أن ابنته تعرف شيئا من صـــناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكواة وما أشبه ذلك من المعارف التى لا أنكر أنها مفيدة بل لازمة لكل امرأة ، ولكنى أقول ولا أخشى

نكيرا انه مخطىء فى توهمه أن المرأة التى لا يكون لها من البضاعة الا هذه المعارف عندها من الكفاءة ما يؤهلها الى ادارة منزلها ٠

ففى رأيى أن المرأة لا يمكنها أن تدير منزلها الا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والأدبيـة ، فيجب أن تتعلم كل ما ينبغى أن يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائى على الأقل حتى يكون لها المام بمبادىء العلوم يسمح لها باختيار ما يوافق ذوقها منها واتقانه بالاشتغال به متى شاءت ٠

فاذا تعلمت المـرأة القراءة والكتابة ، واطلعت على أصـول الحقائق العلمية ، وعرفت مواقع البلاد ، وأجالت النظر فى تاريخ الأمم ، ووقفت على شىء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية ، وكانت حياة ذلك كله فى نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية ، استعد عقلها لقبول الآراء السليمة ، وطرح الخرافات والأباطيل التى تفتك الآن بعقول النساء ٠

وعلى من يتـولى تربية المـرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها حب الفضائل التى تكمل بها النفس الانسانية فى ذاتها ، والفضائل التى لها أثر فى معـاملة الأهـل وحفظ نظام القرابة ، والفضائل التى يظهر أثرها فى نظام الأمة ، حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة فى نفسها ، ولا يتم له ذلك الا بالارشاد القولى والقدوة الصالحة ٠

هذه هى التربية التى أتمنى أن تحمل عليها المرأة المصرية ، ذكرتها بالأجمال ، وهى مفصلة فى المؤلفات المخصصة بها فى كل اللغات ، ولا اظن أن المـرأة بدون هذه التربية يمكنها أن تقـوم بوظيفتها فى الهيئة الاجتماعية وفى العائلة ٠

بالنسبة للوظيفة الاجتماعية

ان النســاء فى كل بلد يقدرن بنصف ســكانه على الأقل ، فبقاؤهن فى الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة ، وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى ٠

ولا شىء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل مثــل الغربية بالعــلوم والآداب والفنــون الجميلة والتجارة والصــناعة الا جهلها واهمال تربيتها ٠ ولو أخــذ بيدها آلى مجتمع الأحيــاء ، ووجهت عزيمتها الى مجاراتهم فى الأعمــال الحيوية ، واستعملت مداركهــا وقواها العقلية والجسمية ، لصارت نفسا حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك لا كما هى اليوم عالة لا تعيش الا بعمل غيرها ، ولكان ذلك خيرا لوطنها ، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه ٠

وانما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم فيدعه فى الصندوق ويكتفى بأن يفتح صندوقه كل يوم ليتمتع برؤية الذهب، ولو عرف لاستعمله وانتفع منه وضاعفه فى سنوات قليلة ٠

من عوامل الضعف فى كل مجتمع انسانى أن يكون العــدد العظيم من أفراده كلا عليه ، لا عمل له فيما يحتاج اليه ، وان عمل كان كالآلة الصماء أو الدابة العجماء لا يدرى ما يصدر منه ٠

المرأة محتاجة الى التعليم لتكون انسانا يعقل ويريد ٠

بلغ من أمر المرأة عندنا أننا اذا تصورناها وجدنا من لوازم تصورها أن يكون لها ولى يقوم بحاجاتها ويدير شئونها كأن وجود هذا الولى مضمون فى جميع الأحوال ، مع أن الوقائع أظهرت لنا أن كثيرا من النساء لا يجدن من الرجال من يعولهن ، فالبنت التى فقدت أقرباءها ولم تتزوج ، والمرأة المطلقة ، والأرملة التى توفى

زوجها ، والوالدة التى ليس لها أولاد ذكور أولها أولاد قصر ـ كل هؤلاء المذكورات يحتجن الى التعليم ليمكنهن القيام بما يسد حاجتهن وحاجات أولادهن ان كان لهن أولاد • أما تجردهن عن العلم فيلجئهن الى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب ، أو الى التطفل على بعض العائلات الكريمة •

ويمكن أن يقال اننا لو بحثنا عن السبب الذى قد يحمل تلك المرأة المسكينة التى تبـذل نفسـها فى ظلام الليـــل لأول طالب ـ وما أكبر هذه المذلة على المرأة ـ لوجدناه فى الأغلب شدة الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة • وقلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة •

ثم انه لا تكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللائى وقعن فى العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه• ويمكننا أن نعد هـذا من الأسباب المانعة للعائلات من السـير على قواعد الاقتصاد •

لهذا السبب وغيره نرى الاختلال الجسيم فى مالية العائلات، فان الرجل المصرى الذى يشتغل لكسب عيشه وعيش أولاده يرى شطرا من المال الذى يجمعه ينفق على أشخاص من أقاربه أو معارفه أو ممن لا علاقة له بهم ، ولكن تلزمه الرأفة الانسانية بأن يبذل لهم من كسبه ما يستطيع كيلا يموتوا جوعا • وهم يرون أنه انما يفعل ما يجب عليه ، ومع ذلك هم قادرون على الكسب ، ولكن يحول بينهم وبينه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة ، وذلك بسبب ما حرموا من التربية •

ولـو فرض أن المـرأة لا تخلو من زوج أو ولى ينفق عليهـا أفلا تكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل ان كان فقيرا ، أو تخفيف شىء من أثقال ادارة المال داخل البيت ان كان غنيا ؟ فان كانت المرأة غنية بنفسـها ـ وهو نادر ـ بأن كان لها ايراد من

عقـارات ونحوها ، أفلا يفيـدها التعليم فى تدبير ثروتها وادارة شئونها ؟

نري النساء كل يوم في اضطرار الى تسليم أموالهن الى قريب أو أجنبى ، ونرى وكلاءهن يشـتغلون بشـئون أنفسـهم أكثر مما يشتغلون بشئون موكلاتهم ، فلا يمضى زمن قليل حتى يغتنى الوكيل ويفتقر الأصيل ·

نري النساء يضعن أختامهن على حساب أو مستند أو عقد يجهلن موضوعه أو قيمته وأهميته لعدم ادراكهن كل ما يحتوى عليه أو عدم كفاءتهن لفهم ما أودعه ، فتجرد الواحدة منهن عن حقوقها الثابتة بتزوير أو غش أو اختلاس يرتكبه زوجها أو أحد أقاربها أو وكيلها ، فهل كان يقع ذلك لو كانت المرأة متعلمة ؟

على أن التعليم فى حد ذاته هو فى كل حال حاجة من حاجات الحياة الانسانية ، وهو الآن من الحاجات الأولى فى كل مجتمع دخلت فيه المدنية · وأصبح العلم هو الغاية الشريفة التى يسعى اليها كل شخص يريد أن يحصل سعادته المادية والروحية ·

ذلك لأن العلم هو الوسيلة الوحيدة التى يرتفع بها شـأن الانسان من منازل الضعة والانحطاط الى مراقى الكرامة والشرف · ولكل نفس حق طبيعى فى تنمية ملكاتها الغريزية الى أقصى حـد ترمى اليه باستعدادها ·

وقد جاءت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كمـا تخـاطب الرجال · والفنون الجميلة والصـنائع والمخترعات والفلسفة العـالية ، كل ذلك يستلفت من المرأة ما استلفته من الرجل · فأى نفس شريفة لا تشتاق الى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلبا للحقيقة وللسعادة فى الدنيا والآخرة ؟ وأى فرق بين الرجل والمرأة في هذا الشوق ، ونحن نرى أن الصبيان من الذكور والاناث

يستوون في الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم ، وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث ؟ وربما كان الولع بذلك في الأنثى أشد منه في الذكر ٠

أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة في قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذى لا نهاية له أمامها ، والسماء فوقها ، والنجوم تلعب ببصرها ، وأرواح الكون تناجيها وتوحى اليها بالآمال والرغائب في فتح كنوز أسرارها ؟

التكاليف الشرعية تدلنا على أن المرأة وهبت من العقل مثل ما وهب الرجل ٠ أيظن رجل لم يعمه الغرض أن الله قد وهبها من العقل ما وهبها عبثا ،و أنه آتاها من الحواس وآلات الادراك ما آتاها لأجل أن تهملها ولا تستعملها ؟

يقول المسلمون أن النساء ربات الخدور يعمرن المنازل ، وان وظيفتهن تنتهى عند عتبة باب البيت ٠ وهو قول من يعيش في عالم الخيـال ، وضرب بينه وبين الحقيقـة بحجاب لا ينفذ بصره الى ما وراءه ٠

ولو تبصر المسلمون لعلموا أن اعفـاء المرأة من أول واجب عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات هـذه الحياة بنفسها ، هو السبب الذى جر ضياع حقوقها ٠ فان الرجل لمـا كان مسئولا عن كل شيء استأثر بالحق في التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأة حظ في نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلا منه على أن يتسلى به ٠

مضت الأجيال عنـدنا والمرأة خاضعة لحكم القوة ، مغلوبة لسلطان الاستبداد من الرجل ، وهو لم يشأ أن يتخذها الا انسانا صالحا لخدمته مسيرا بارادته ، وأغلق في وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث آل أمرها الى العجز عن تناول وسيلة من وسائل

العيش بنفسها ، ولم يبق أمامها من طرقه الا أن تعيش ببعضها اما زوجة أو مفحشة !

ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها ، وانما بضاعتها أن تسلي الرجل وتمتعه من اللذة بجسمها بما شاء ، وجهت جميع قواها الى التفنن فى طرق استمالته اليها والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه ٠

مضت تلك الأزمان الطويلة على المرأة ، ولم يمس عقلها شيء من التربية الصحيحة ، فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة ، وانفرد الحس بالتصرف فى ارادتها ، فحسها هو المميز عندها بين الخير والشر ، هو الرائد لها فى الاختيار بين النفع والضرر ، فهى تنفر أو تميل ٠ فان أحبت أخلصت لا عن عقل ، وصدرت منها الأعمال الجميلة فيما تحب ولمن تحب بمحض الهوى لا بأصالة الرأى ٠ وان ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عارفة بالمصائر ، فلو كانت أدركتها العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها لنمت فيها بذلك قوة الحكم على احساسها ، ولتصرفت فى أعمالها على مقتضى الحكمة وقواعد الأدب ٠

أضلت المرأة عقلها فى ظلمات الأجيال الماضية ، ففقدت رشدها ، وأدركها العجز عن تناول ما تشتهى من الطرق المسنونة ، فاضطرت الى استعمال الحيلة ، وأخذت تعامل الرجل ـ وهو سيدها وولى أمرها ـ كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه ، ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءها منزع ، فأصبحت ممثلة ماهرة ، ومشخصة قادرة ، تظهر فى المظاهر المتضادة والألوان المختلفة فى كل حال بحسبها ـ كل ذلك لا عن عقل وحكمة وانما هى حيل الثعالبة ٠

ولكن لا لوم عليها ، وعذرها أنها ليست حرة ٠ وانما فقدت

الحرية لأنها فقدت السلامة فى قوة التمييز · بل اللوم كل اللوم على الرجال : أريد بهم من سبقنا ممن أهملوا تربية نسائنا ·

بالنسبة للوظيفة العائلية

يكفى كل انسان متفكر أن يتأمل فى حالة عائلته ليتأكد أن استمرار الحال على ما هى عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله ·

انى أكتب هذه السطور وذهنى مفعم بالحوادث التى وردت على بالتجربة ، وأخذت بمجامع خواطرى · ولا أريد أن أذكر شيئا منها ، لعلمى أنها ما تركت ذهنا حتى طافت به ولا خاطرا حتى وردت عليه · فان مثال هذه الحوادث جميعها هو شيء واحد ، هو المرض الملم بجميع العائلات ، لا فرق بين فقيرها وغنيها ، ولا بين وضيعها ورفيعها ، وهو جهل المرأة · فقد تساوت النساء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن الا فى الملبس والحلى · بل يمكن أن يقال انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها ، وان آخر طبقة من نساء الأمة ، وهى التى تسكن الأرياف ، هى أكملهن عقلا بنسبة حالها ·

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح · مداركهما فى مستوى واحد ، لا يزيد أحدهما على الآخر تقريبا ، مع أننا نرى المرأة فى الطبقة العالية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة ، ذلك لأن الرجال فى هذه الطبقات تربت عقولهم ، واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة ، بل وقفن فى الطريق · وهذا الاختلاف هو أكبر سبب فى شقاء الرجل والمرأة معا ·

فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق فى منزله . وله ذوق مهذب يميل الى الأشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات

الرقيقة ، ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الأفراد حدا ينتهى الى اهمال الأمور المادية · يفهم بكلمة ، ويود لو يفهم بالاشارة · يسكت فى أوقات ، ويتكلم فى أخرى ، ويضحك فى غيرها · له أفكار يحبها ، ومذهب يشغله ، وجمعية يخدمها ، ووطن يعزه · له لذائذ وآلام معنوية ، فيبكى مع الفقير ، ويحزن مع المظلوم ، ويفرح بالخير للناس · وفى كل فكرة تتولد فى ذهنه أو احساس يؤثر على أعصابه يود أن يجد بجانبه انسانا آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه · وهذا ميل طبيعى يجده كل شخص من نفسه · فاذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه وأحزانه عنها ، ولم يلبث ان يرى نفسه فى عالم وحده وامرأته فى عالم آخر ، اذ هى تعتبر أن الرجل ما خلق فى هذه الدنيا الا ليشترى لها الأقمشة الغالية والجواهر النفسية ، وليصرف أوقاته فى ملاعبتها كأنه صورة أكبر من الصور التى كان يشتريها لها والدها فى صغرها لتلهو بها !

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر الى نفسه احتقارها ، وعدها عدما ، لا أثر لها فى شئونه · وهى متى رأته أهمل وأغضى ضاق صدرها ، وظنت أنه يظلمها ، وبكت سوء حظها الذى ساقها الى رجل لا يقدرها قدرها ، ونبتت البغضاء فى قلبها · ومن ثم تبتدىء عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالا منها ، عيشة يرى كل منهما فيها أن صاحبه هو العدو الذى يحول بينه وبين السعادة !

ولا يظن أن هذا يختص بذوى الأخلاق الفاسدة من الرجال والنساء ، فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس ولكن العيشة بينهما خصام مستمر ، ولا ذنب على أحدهما ، بل الذنب على اختلافهما فى التربية كما تقدم · ومنتهى هذه الحالة — ان استمر الاقتران بينهما — أن يميت أحدهما حقه فى سبيل راحة الآخر ، أو يجر كلاهما قيده الثقيل الى آخر العمر · ولكن

مهما كان حال الزوجين ـ وهما على ما ذكرنا من الوصف ـ فلا سبيل الى ارتباطهما برابطة المحبة اذا أخذت بمعناها الخاص ، ولا خسران فى الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة !

جاء فى القصص الدينية المسطورة فى الكتب السماوية أن الله خلق حواء من ضلع ادم · وفى هذا ـ على ما أظن ـ رمز لطيف الى أن الرجل والمرأة يكونان مجموعا واحدا لا يتم الا باتحادهما ، ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل ، وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على أن الرجل والمرأة هما شقان لجسم واحد مفتقر بعضه الى بعض ليتم له الكمال بالاجتماع ·

وهذا الانجذاب الغريزى الذى أوجده الله فى كل المخلوقات الحية ـ حتى فى النباتات التى يشاهد فى بعضها حركة محسوسة بين الذكر والأنثى اذا آن وقت التلقيح على طريقة حار فى تفسيرها علماء الطبيعة ـ هو أهم عنصر يدخل فى تركيب الحب ، وهو يكفى لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ، ولا يختلف فى الانسان عنه فى الحيوان · أما أصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضا كأصول كل الأشياء تقريبا ، وانما يرجح قسم من العلماء أنه سيال يتولد فى المراكز العصبية ، فمتى وجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعرا بضرورة اقترابهما ، فاذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرح · تتكلم عيونهما وتترجم عن الاضطرابات التى تهيج قلوبهما قبل أن ينطق اللسان ، كأن روحيهما صديقتان افترقتا فى عالم قبل هذا العالم ، وأخذت كل واحدة منهما تبحث عن الأخرى حتى اذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التى كانت تنشدها · وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال وأمانى أكبر من مجرد التلاقى ، فتختلطان ويحدث بينهما شبه العهد على ألا تفترقا · ترى كل واحدة منهما أن لا سعادة لها الا باتصالها بالأخرى ·

لكن هذا الانجذاب المادى لا يلبث مدة حتى يأخذ فى التلاشى

ويتناقص شيئا فشيئا ، فمهما كانت شدة الرغبة عند أول التلاقي فهي صائرة الى الزوال في زمن يختلف طوله وقصره باختلاف الامزجة • وتضمحل تلك الآمال ، وتتساقط كل الامانى ، ويكاد التقاطع يحل محل التواصل ، لولا ما اختص الله به الانسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال ، بما يستجلى من بهاء الأرواح وسناء العقول • فهو يضم الى المنظر البديع الجسدانى منظرا آخر قد يكون أبدع في اعتباره ، وهو المنظر الروحانى العقلى • وكثيرا ما يستبدل بلذة الحس التى لا بقاء لها لذة العقل والوجدان التي لا تنتهي أطوارها ولا تفنى مظاهرها • يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر ، ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كأنه طبع لها اذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحذق فى العمل مع المحافظة على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب وصدق اللسان وطهارة الذمة وعظم الأمانة والاخلاص فى الولاء ، ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التى ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدية • ووجدان اللذة بهذه المعانى عنصر آخر يدخل فى تركيب الحب أيضا ــ ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام •

وأما ما يروى من أن رجلا عشق امرأة عشقا روحانيا محضا ، أو أن آخر عشق أخرى للذة المادية ليس الا ، بدون اعتبار تلك الصفات الأدبية ، فقد يكون لأن الأول رجل خيالى والثانى رجل جاهل شهوى • على أن التجارب دلت على أن هذه الشهوات البتراء ليس لها حظ من البقاء ، فهى كالنار ذات اللهب تهب وتنطفىء بسرعة •

واليك بيانا يزيد وضوحا فى فهم ما تقدم :

اللذة الجسمانية المتحدة فى النوع مهما تخالفت فى الأفراد فهى دائما واحدة فان أفراد اللذة المتحدة فى النوع تتشابه الى

حد تكاد لا تتميز الا باختلاف الزمان أو المكان مثلا · فما يحصل منها أولا هو ما يحصل ثانيا وثالثا ورابعا ·· وهكذا ···

ومن البدهي أن تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظر أو لذة سمع أو لذة ذوق أو لذة لمس يفضي في الغالب الى فقد الرغبة فيها فيأتي زمن لا تتنبه الأعصاب لها لكثرة تعودها اياها ·

والأمر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية · هذه اللذة في طبيتها يمكن تجددها في كل آن · تأمل مسامرة صديقين تجد أنها كنز سرور لا يفنى · متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر ، فيسرى عقلهما من موضوع لموضوع ، وينتقل من الجزئيات الى الكليات ، ويمر على الآلام والآمال والقبيح والحسن والناقص والكامل · كل عمل أو فكر أو حادث أو اختراع يكسب عقلهما غذاء جديدا ، ويفيد أنفسهما لذة جديدة · كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية ، وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة ، تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ، ويزيد في رابطة الألفة بينهما عقدة جديدة ·

ومن هنا يعلم مقـدار سلطان الحب الحقيقي على الانسان ، وكيف أن العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من أكبر السعادات في هذه الدنيا · فان كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها !

فهذا الحب لا يمكن أن يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب في التربية والتعليم · ويجب ألا يفهم أن الرجـل المتعلم اذا لم يحب زوجته فهي يمكنها أن تحبه · فان توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم ، لأن الحب الحقيقي الذى عرفت عنصربه المادى والمعنوى لا يبقى الا بالاحترام ، والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه ، والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها !

سـل جمهور المتزوجين : هـل هم محبوبون من نسائهم ؟ يجيبوك : نعـم · لكن الحقيقة غير ما يظنون ـ انى بحثت كثيرا في عائلات مما يقال انها في اتفاق تام فما وجدت الى الآن زوجـا يحب امرأته ولا امرأة تحب زوجها · أما هذا الاتفاق الظاهرى الذى يشاهد في كثير من العائلات فمعناه أنه لا يوجد شقاق بين الزوجين اما لأن الزوج تعب وترك ، واما لأن المرأة تركت زوجها يتصرف فيهـا كمـا يتصرف المالك في ملكه ، واما لأنهما كليهما جاهلان لا يدركان قيمة الحياة · وهذا الحال الأخير هو حال أغلب الأزواج المصريين · ولا أرى ما يقرب من السعادة الا فى هذا النوع الأخير ، وان كانت سعادة سلبية لا قيمة لها ·

أما في النوعين الأولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال ، وهو فناء أحد الزوجين في سبيل ابقاء الآخر · وغاية ما يمكن أن أسلم به هو أنه قد يشاهد فى عدد قليل من الأزواج شيء يقرب من المودة يظهر في بعض الأحيان ، ثم يختفي ، وهو استثناء يؤيد القاعدة وهى عدم الحب : عدم الحب من طرف الزوج ، لأن امرأته متأخرة عنه في العقل والتربية تأخرا فاحشا بحيث لا تكاد توجد مسألة يمكن أن يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل ، ولا يكاد يوجد أمر يتفقان فى الحكم عليه برأى واحـد · ولأنها بعيدة عن العواطف والمعانى والأشغال التى يميل اليها ، ومغمورة في شئون ليس لها من مينه نصيب ، حتى انها في الأمور التى هى من عملها ، وترى أنها خلقت لأجلها ، لا يرى منها زوجها ما يروق نظره · فأكثر النساء لم يتعودن تسريح شعورهن كل يوم ، ولا الاستحمام أكثر من مرة فى الأسبوع ، ولا يعرفن استعمال السواك ، ولا يعتنين بما يلى البدن من الملابس مع أن جودتها ونظافتها لها أعظم تأثير في استمالة الرجل ، ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج ، وكيف يحافظ عليها ، وكيف يمكن تنميتها ، وكيف تكون موافاتها ،

ذلك لأن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة ، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور ، فاذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك ٠

وأما عدم الحب من طرف المرأة فلأنها لا تذوق معنى الحب ٠ ولو أردنا أن نحلل احساسها بالنسبة لزوجها نجد أنه يتركب من أمرين : ميل اليه من حيث هو رجل أبيح لها أن تقضي معه شهواتها ، وشعور بأن هذا الرجل نافع لها للقيام بحاجات معيشتها ٠ أما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت كل منهما الأخرى من بين الآلاف امتزاجا تاما يؤلف منهما موجودا واحدا ، كأن كلا منهما صوت والآخر صداه ، ذلك الاخلاص التام الذي ينسى الانسان نفسه ولا يدع له فكرا الا في صاحبه ، ذلك الاخلاص لا نجد له مثالا أظهر من حب الوالدة لولدها ــ فهي بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض ، لأن الحب بهذه الدرجة ان لم يكن طبيعيا كحب الأم لولدها فهو ثمرة عزيزة لا تطلب الا عند النفوس العالية التي تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار ٠

والزوجة المصرية ــ مهما كانت ــ لا تعرف من زوجها سوى أنه طويل أو قصير ، أبيض أو أسود ٠ أما قيمة زوجها العقلية والأدبية وسيرته وطهارة ذمته ودقة احساسه ومعارفه وأعماله ومقاصده في الوجود ، وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به الى أن يكون محترما محبوبا ممدوحا في أمته ــ فهذا لا يصل الى عقلها شيء منه ٠ وان وصل فلا يؤثر على منزلته في نفسها ٠ وعلى هذا يكون أول من يجهل الرجل زوجته ٠ فكيف يظن أنها تحبه ؟

نرى نساءنا يمدحن رجالا لا يقبل رجل شريف أن يمد لهم يده ليصافحهم ، ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفا لنا

ذلك لأن المرأة جاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها ، فأحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ، ويكون عنده مال لا يفنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى • وأبغض الرجال عندها من يقضى أوقاته في الاشتغال فى مكتبه • كلما رأته جالسا منحنى الظهر مشغولا بمطالعة كتاب غضبت منه ، ولعنت الكتب والعلوم التى تسلب منها هذه الساعات ، وتختلس الحقوق التى اكتسبتها على زوجها • ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهى الا بنزاع جديد ، ولا يدرى الزوج المسكين ماذا يصنع اذا أراد أن يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم • أراه فى حيرة أشد من الرجل الذى جمع بين زوجتين • فقد رأينا أحيانا كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجتين لرجل واحد • وما سمع قط أن امرأة مصرية ممن نعنى رضيت بمباشرة العلم !

ومن البدهى أن الرجل الذى يكون هذا حاله ينتهى بفقد كل استعداد للعمل ، لأن العلم لا يثمر الا اذا كان العقل متمتعا بالهدوء والسكون خاليا عن الاضطراب والتشويش ، ولأن الرجل يطلب راحته وهى فى يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه •

رأينا مما تقدم أن المرأة المصرية لا تجد ذوق الحب خصوصا اذا كان زوجها متعلما يصرف وقته فى الأعمال النافعة •

قد يقال ان الحب الذى تكلمت عنه هو من كمال السعادة ، وليس من الأمور الضرورية التى لا يستغنى عنها فى الزواج ، وانه عند فقده يمكن أن يعوض بصفات أخرى عند الزوجة ، ويكفى أن تكون المرأة رفيقة لزوجها شريكة له فى المنافع والمضار ، ولذلك فهى تساعده على حاجات الحياة ، ليتم له بعض المساعدة ــ هــذا يمكن أن يكون ، ولكن كيف الوصول اليه أيضا مع جهل المرأة ؟

قلت ان المرأة الفلاحة مع جهلهــا هى زميلة الرجل فى كل أعماله ، وهى قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها • ذلك سهل

لأن العيشــة في الأرياف ساذجة بدوية تقريبـا وحاجات العائلة قليلة • أما في المدن التي ترقت فيها المعيشة وكثرت الحاجات وتشعبت طرق المنافع وبلغت فيها ادارة المنزل درجة ادارة مصلحة من كبريات المصالح ، فالمرأة التي يسلم اليها زمامها لا يمكنها أن تديرها الا بالتعليم والتربية •

والحقيقة أن ادارة المنزل صارت فنا واسعا يحتاج الى معارف كثـيرة مختلفة • فعلى الزوجـة وضع ميزانيـة الايراد والمنصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل في مالية العائله ، وعليها مراقبة الخدم بحيث لا يفلتون من مراقبتها ، وبغير هــذا يستحيل أن يؤدوا خدمتهم كما ينبغي • وعليها أن تجعل بيتها محبوبا الى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته اذا أوى اليه ، فتحلو له الاقامة فيه ، ويلذ له المطعم والمشرب والمنام ، فلا يطلب المفر منه ليمضي أوقاته عند الجيران أو في المحلات العمومية • وعليها ــ وهو أول الواجبات وأهمها ــ تربية الأولاد جسما وعقلا وأدبا •

وظاهر أن تطبيق هذه الواجبات التي ذكرتها بالاجمال على العيشة الجارية بالتفصيل يستدعي عقلا واسعا ومعلومات متنوعة وذوقا سليما ، ولا يتأتى وجود ذلك في المرأة الجاهلة وخصوصا ما يتعلق منها بتربية الأطفال •

بالغنا في نسيان أن الأولاد هم صناعة الوالدين وأن الأمهات لهن النصيب الأوفر في هذه الصناعة • بالغنا في اعتقاد أن الله يخرج الفاسد من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد ، وأنه يوزع العقول ويهب الصفات كما يشاء ، وهو اعتقاد صحيح اذا أخذ من جهة أن الله قادر على كل شيء ، ومن متناول قدرته أن يفعل مثل ذلك ، فان كان المقصود أن الله يمكنه أن يفعل مثل هذا فلا شك في قدرته سبحانه وتعالى ، وليس من ينازع في أنه لو شاء لفعل ذلك ، كما أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ، ولأنبت الحيوان

من الأرض ، لكن الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاما وللمخلوقات نواميس تجرى عليها أحكامها :

« **فطرة الله التي فطر الناس عليها ٠ لا تبديل لخلق الله ٠ ذلك الدين القيم** » ٠٠

وتاريخ الانسانية من عهد وجودها على الأرض الى الآن أيد ثبات هذه السنن واستمرارها ٠

من أكبر مظاهر حكمته جل شأنه هذه الحقيقة التى كشفها لنا العلم ، وهى أن كل فرد من الأنواع الحية ـ وفيها النوع الانسانى ـ ليس الا نسخة مطابقة للأصل المتولد منه ، ففيه صورة نوعه الكلى ، وفيه صورة والديه خصوصا ، بمعنى أن هذا الفرد يحتوى أولا على الخواص المميزة لنوعه وعلى الصفات الخاصة بأبويه ٠

ودلت الاكتشافات الحديثة أيضا على أن كل الملكات العقلية والأدبية فى الانسان انما هى مظاهر من وظائف المخ ، كما أن الصفراء من عمل وظيفة الكبد ٠ وما يسمى عقلا أو عاطفة فلا عمل له الا عمل تلك الوظائف ، وعملها تابع لحالة الأعصاب والمخ ٠ وانما مادة تلك الأعضاء متنوعة من الأصل الذى تولدت منه ، فلا ريب أن يكون لها تبعية عظمى لذلك الأصل ٠ ثم من الظاهر أن الجسم لا يستغنى فى نموه وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة الأولى ، بل لابد فى النمو والبقاء من التربية والغذاء ٠ فكذلك حال العقل والملكات لا يستغنى بما أودعته المدارك والقوى من الاستعداد الأول ، بل لابد فى ظهور أثرها وسيرها فيما أعدت له من الغذاء الذى يوافقها والتربية التى تلائمها ٠ فالوراثة والتربية هما الأصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الطفل ذكرا كان أو أنثى ، وليس هناك شىء وراء ذلك ٠

فبالوراثة يكسب الطفل استعدادا لكل ميل كان عليه الوالدان،

صالحا كان أو فاسدا ، ويرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو فى بطن أمه . فصفات الطفل مرتبطة بما كان عليه أسلافه من جهة الأم ومن جهة الأب . وبالتربية يمتلىء ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس وبأثرها فى نفسه ألما كان أو لذة . وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول الى ارادة مربيه ، فهو الذى يريه ويسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم ، وهو الذى يعرض على وجدانه من العواطف ما يراه لائقا به ، فان لم يرد عليه من صور المحسوسات الا ما هو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة ، أو لم يشعر من العواطف الا بما يظهر أثره فى أقرب الأشياء من لذته الجسمانية كان سريع الاندفاع مع أول خاطر يبدو له كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون ، وان كانت معلوماته كثيرة تحتوى على صور الأشياء ، وصور ما يحدث عنها لأول التصور ، وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك ، وكان وجدانه رقيقا لطيفا ــ كان الناشىء كثير التأمل شديد التبصر بطىء الاندفاع مع أول انفعال يتأثر به من الحس والشعور ، فينشأ وبيده ميزان يزن به أعماله ويقدر به حركاته ، ويشاهد فيه وهو فى صباه الميل الى النافع والنفرة من الضار .

لا نقول ان الطفل يكون فى ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد ، ولكنها أوائل وجراثيم من الكمال العقلى والأدبى تصل بالتنمية والتربية الى تلك الغايات الشريفة التى يسعى اليها كل من عرف معنى الانسانية وذاق لذة الفضيلة . فسلامة العقل لا تتم الا بحسن الوارثة وحسن التربية ، وهذا ما جعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد فى الأخلاق الى مرض فى المخ أو فى الأعصاب موروث أو مكتسب . وان شوهد أن الولد لا يشابه أبويه فى بعض الأحوال فان قانون الوراثة قد يرجعه الى أحد أسلافه القريبين .

متى حسنت التربية على الوجه الذى ذكرناه ضعف الاستعداد الذى كسبه الطفل من والديه ان كان رديئا ، وتأصل فيه استعداد

جديد يرثه عنه من يتولد منه ، ويقوى فيه ذلك الاستعداد ان كان حسنا فيبلغ غاية ما يرجى لانسان فاضل من أبوين فاضلين ، ويظهر أثر ذلك أيضا فى أولاده وأعقابه ان استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذى صار به هذا الولد رجلا صالحا · أما ان كانت التربية فاسدة ، وكل ما يرد على الطفل انما يثير فيه أهواء باطلة ، فالاستعداد الخبيث يقوى ، والاستعداد الطيب يضمحل ويموت ، ويجنى على أولاده تلك الجناية التى جناها عليه والداه ·

قال الغزالى فى التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهيت أن أوردها هنا وهى : « الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش ، وماثل الى كل ما يمال اليه به ، فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب · وان عود الشر ، وأهمل اهمال البهائم، شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة وليه القيم عليه · وقد قال الله عز وجل :

« يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » ··

والتربية تنحصر فى أمر واحد هو تعويد الطفل حسن الفعل وتحلية نفسه بجميل الخصال · والوسيلة الى ذلك واحدة هى أن يشاهد الطفل آثار هذه الأخلاق حوله ، لأن التقليد فى غريزة الطفل يكتسب به كل ما تلزم معرفته ، فان كانت الأم جاهلة تركت ولدها لنفسه يفعل ما يزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة ، ويرى من الأعمال ما لا ينطبق على محاسن الأدب فيتخلق بالأخلاق القبيحة ويعتاد العوائد الفاسدة ·

ويرى الأسوة السيئة فى بيته وفى الخارج ، وكلما تقدم فى السن رسخت فيه هذه الأخلاق وكبرت معه بكبره · فاذا وصل الى سن الرجولية رأى نفسه أو رآه الناس رجلا سيىء التربية ،

ولا سبيل له بعد ذلك الى اصلاح نفسه مهما كانت ارادته ومعارفه وعقله • ويندر جـــدا أن يوجـد شخص يبتدىء بعد بلوغه سن الرجولة فى اصلاح ما فسد من ملكاته ثم ينجح فى ذلك ، الا الى حد محدود •

ومن المعلوم أن الطفل لا يعيش من طفوليته الى سن التمييز الا بين النســاء ، فهو دائما محاط بأمه وأخـواته وعماته وخالاته وخادماتهن وصواحبهن ويرى أباه فى أوقات قليلة • فاذا كان هذا الوسط الذى ينشأ فيه طيبا كانت تربيته طيبة ، وان كان سيئا ساءت تربيته • والأم الجاهلة ليس فى استطاعتها أن تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة ، لأنها لا تعرفها ، وغاية ما تستطيع هو أنها تدعه يلتقط الخلال الرديئة بما يعرض له ان لم تبذر بيدها حبوبها فى نفسه وتغرس فيها الملكات السيئة •

أليس من جهل الأم بقوانين الصحة أن تهمل ولدها من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه متشردا فى الطرق والأزقة يتمرغ فى الأتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها أن تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذى هو رأس ماله مضطجعا أو نائما أو لاهيا مع أن سن الطفولة لا تعْرف الكسل وهى سن النشــاط والعمل والحركة ؟ أليس من أثر جهلها أننا جميعا مصابون بشلل فى أعصـــابنا حتى صرنا لا نتأثر من شىء مهما بلغ فى الحسن والقبيح ، فاذا رأينا عملا جيدا مدحناه من طرف اللسان ، واذا شاهدنا فعلا قبيحا استهجناه بهز الرؤوس وظاهر من القول بدون أن نشعر بانبعاث باطنى يقهرنا على الاندفاع الى الأول والابتعاد عن الثانى ؟ أليس من جهلها أن تسلك فى تاديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفاريت ، وأن تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفى زوايا الأضرحة وغير ذلك مما لا يبالى به الجاهلون بأصول الدين وفضائل

الأعمال وله من الأثر السيىء فى أنفس الناشئين ، بل فى أرواح الرجال ، ما يجر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟

قد صار من المقرر عنـدنا أن الأمهات لا يفلحن فى تربيـة الأولاد ، حتى صار من المثل فى الحطة ورداءة السير أن يقال فلان « تربية امرأة » • على أننا نرى أن تربية المرأة فى البلاد الغربية تفوق تربية الرجل ، وأن أحسن الناس تربية هـم من ساعدهم الدهر فى أن تتولى تربيتهم امرأة • وليس هذا بغريب ، فان المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هى بها أقوى استعدادا للنجـاح فى التربية ، ذلك أنها أصبر من الرجل فيما تحب ، وأنها ألطف منه فى المعاملة ، وأرق منه فى العواطف والاحساسات • ويفتخر الغربيون بتأثير النساء فى أحوالهم حتى بلوغ رشدهم ، فقد قرأت فى أحد كتب « رينـان » الفيلسوف الشهير ما محصله : « أن أجمل ما وضعه فى مؤلفاته كان الهاما من أخته » • وقال « ألفونس دوديه » الكاتب المجيد فى بعض ما كتبه : « ان كنت أستحق فخرا فلامرأتى نصفه » • وأمثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على أحوال الأوربيين ، وكلها تدل على أن تربية المرأة أمر لا يستغنى عنه ، وأن القسم الأعظم من التربية منوط بالمرأة •

وقد نجد فى هدى نبينا صلى الله عليه وسلم ما يشـير الى ذلك ، بل ما كان يجب أن يعد أصلا من الأصول التى نركن اليها فى بناء أمورنا الملية ، حيث قال فى شأن عائشة رضى الله عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » ، وعائشة امرأة لم تؤيد بوحى ولا بمعجزة ، وانما سمعت فوعت ، وعلمت فتعلمت •

أود أن كل مصرى يرى أن مسألة التربية عندنا هى أم سائر المسائل ، وأن كل مسألة غيرها مهما كانت أهميتها داخلة فيها •

عرف المصريون بعوائد وأخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها • تلك العوائد والأخلاق ليست معروفة فى

الدين ولا هى موافقة لما يستحسنه العقلاء حتى من المصريين أنفسهم وقل ما يشاهد مثلها عند غيرهم ٠

وقد آن الوقت على ما أظن لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية ، تربيــة تنشىء رجالا أولى علم وأصالة رأى ، يجمعون بين المعارف والأخلاق والعلم والعمل ، تربية تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الأجنبى فى كل يوم وبكل لسان ، وكلهــا ترجع ـ مهما اختلفت فى الاسم ـ الى سبب واحد وهو النقص فى تربية نفوسنا ٠ وقد اتفق جميع أهل النظر فى مصر على أن التربية هى الدواء الوحيد لذلك الداء ٠ وانتشر هذا الرأى الصائب فى الكتب والجرائد وأحاديث المجالس حتى صح أن يقال انه أصبح رأيا عاما ٠ وتولد عن ذلك شعور بأن مستقبل الأمة تابع لتربيتها ٠

ولكن أرى همم الناس موجهة الى التعليم ، ولا أرى أحــدا يلتفت الى تربية النفوس ، وأرى أن الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور ، مع أن تهذيب الأخلاق مقدم على التعليم ، وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور ٠

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم ، فذلك غير ضرورى ٠ وانما أطلب الآن ، ولا أتردد فى الطلب ، أن توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل ، وأن يعتنى بتعليمهم الى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين ٠

أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف ، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية وشيئا من الخياطة والتطريز والموسيقى ، ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت اليها ٠ وربما زادتهن تلك المعارف غرورا بأنفسهن ، فتظن الواحدة منهن أنها متى عرفت أن تقول نهارك سعيد باللغة الفرنسية فقد فاقت أترابها وارتفع شأنها وسما عقلها ، ولا تتنازل بعــد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية ، فتقضى حيا ـــا فى تلاوة

أقاصيص وحكايات قلما تفيد الا فى اثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالما لطيفا تسرح فيه طرفها وهى شاخصة الى دخان السيجارة التى تقبض عليها !

أكثر مما تعرفه المرأة التى يقال الآن انها متعلمة هو القراءة والكتابة ، وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى اليها • وما بقى من معارفها قشور تجمعها الحافظة فى ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شىء • أين هذه القشور من الحقائق العلمية التى يتغذى منها العقل ويتقوى بها على مطاردة الوهم ؟ – لا شىء ينفع الانسان مثل اكتسابه ما يسمى عقلا عمليا • أريد بذلك ما يقابل التخيل الذى يعيش به صاحبه فى أوهام وهواجس لا ترجع الى حق ثابت ، فان كل مصائب الانسان تأتى له من باب واحد وهو الخيال • وكلما تجرد الانسان عن الأوهام والخيالات قرب من السعادة ، وهو يبتعد عنها بقدر ما يبعد عن الحقيقة •

الحقيقة هى ضالة الانسان فى العالم ، ويجب عليه أن يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب • الحقيقة هى الكنز الذى أودع الله فيه كل آمال الانسان ، لا يجدها الا من رغب فيها ومال عن سواها • الحقيقة هى مشرق السعادة لأنها وحدها الوسيلة لوصول الانسان الى كمال العقل والنفس • والنساء مثل الرجال فى الحاجة الى معرفة الحقيقة والى اكتساب عقل سليم يحكم على نفوسهن ويرشدهن فى الحياة الى الأعمال الطيبة النافعة •

انظر الى الطفل تجده يشتهى وينفر ، ويحب ويكره ، ويفرح ويحزن ، ويضحك ويبكى ، ويسكن ويغضب ، وهو فى كل ذلك انما ينفعل بحس ، وينبعث بوهم ، وينقاد الى خيال • واذا أراد شيئا فمنع عنه لم يستعمل للوصول الى غرضه الا شيئا من الغش والمكر والكذب • لم ذلك ؟ لأن عقله ضعيف ومعارفه قليلة ، ولم

تصل قواه العقلية الى درجة تتمكن فيها من القياس والموازنة بين الأعمال والرغائب والآلام ، حتى تحمله على الصبر أحيانا ، وطلب المرغوب من أبوابه ووسائله الصحيحة أحيانا أخرى · والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل فيما ذكرناه ·

سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا أنهن أعوان ابليس، فلا تسمع الا ذما لخصالهن ، وتنقيصا لعقلهن ، وتحذيرا من مكرهن · وأنا لا أبرىء النساء الآن من هذه الصفات ، ولكن أرى أن التبعة ليست عليهن بل على الرجال ·

هل صنعنا شيئا لتحسين حال المرأة ؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب أخلاقها وتثقيف عقلها ؟ أيجوز أن نترك نساءنا فى حالة لا تمتاز عن حالة الأنعام ؟ أيصح أن يعيش النصف من أمتنا فى ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئا مما يمر حولهن كما فى الكتاب : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » ؟ أليس بينهن أمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وزوجاتنا ، وهن زينة حياتنا الدنيا ، والجزء الذى لا يمكن فصله منا ، دمنا من دمهم ، ولحمنا من لحمهن ؟ أليس الرجال من النساء والنساء من الرجال ، وهن نحن ونحن هن ؟ أيتم كمال الرجل اذا كانت المرأة ناقصة ؟ وهل يسعد الرجال الا بالنساء ؟

نحن حرمنا أنفسنا من أكبر لذة فى الدنيا وهى التمتع بمحبة ذوى القربى من النساء ·

كل منا يذوق حلاوة الساعات التى تمر به بدون أن يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له ، وتختلط أنفسهما بعضها ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع ، فهذا السرور يتضاعف بلا شك اذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه أو أخته أو زوجته ، ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين

عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن . ولهذا فانا نشفق عليهن ونحن اليهن ونعذرهن ، ولكن لا تكمل محبتنا لهن ، لأن الحب التام هو ذلك التوافق ، وهو المعدوم ·

والانسان محتاج الى أن يكون محبا وأن يكون محبوبا · ومن فضل الله عليه أن وضع بجانبه أمهات وزوجات وغرس فى قلوبهن محبته وفى قلبه محبتهن ، وهذه أكبر نعمة من الله علينا بها ، لأن هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة اذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا فى سجن الحياة ، وهونت علينا الآلام والمصائب التى لولا هذه التسلية لأفضت فى بعض الأوقات بأقوى رجل منا الى اليأس · فعدم تقديرها قدرها ، وانصراف العناية عن تنميتها وتكميلها ، كفران بنعم الله وتقصير فى شكره ·

بقى علينا أن ندفع اعتراضا لا يمكننا السكوت عليه ، لأنه فى الحقيقة هو المانع الوحيد التى اتفقت أغلب العقول على وضعه حاجزا يحول بين المرأة والتعليم ، وهو الخوف من أن التعليم يفسد أخلاقها ·

رسخ فى أذهان الرجال أن تعليم المرأة وعفتها لا يجتمعان ، وقال الأقدمون فى ذلك أقوالا طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش والحيلة ، فلو تعلمت لم يزدها التعليم الا براعة فى الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة ، فحذونا مثالهم واعتقدنا أن التعليم يزيد تفننها فى المكر ، ويعطيها سلاحا جديدا تتقوى به طبيعتها الخبيثة على ارتكاب المفاسد ·

أما أن المرأة الآن ناقصة العقل شديدة الحيلة فهذا مما لايختلف فيه اثنان · وقد بينا أن هذه الحالة هى أثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما أجيالا طويلة ، ومتى زال السبب فلا شك أن المسبب يتبعه · وأما كون التعليم يفسد أخلاقها فهذا

ننكره ونشدد النكير عليه ، فان التعليم ـ خصوصا اذا كان مصحوبا بتهذيب الأخلاق ـ يرفع المرأة ، ويرد اليها مرتبتها واعتبارها ويكمل عقلها ، ويسمح لها أن تتفكر وتتأمل وتتبصر فى أعمالها ٠ وان وقع أن امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم ، وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية ، فقد وقع أن ألوفا من النساء الجاهلات دنسن عروضهن ، وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادما أو خادمة أو دلالة أو جارة عجوزا ٠

والحقيقة أن طهارة القلب فى الغرائز والطبائع ٠ فان كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحا وتقوى ، وان كانت فاجرة لم يزدها العلم فجورا ، وهكذا الحال فى الرجال ٠ وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لا يمنع من تعاطيه ، فقد قال الله فى شأن كتابه :

« يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ٠ وما يضل به الا الفاسقين » ٠٠

فأثر التعليم لا يمكن أن يكون ضررا محضا ، ولا يمكن أن يكون منشأ حقيقيا لضرر ٠ فالمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور أكثر مما تخشاه الجاهلة ، ولا تقدم بسهولة على ما يضر بحسن سمعتها ، بخلاف الجاهلة فان من أخلاقها الطيش والخفة ٠ وأذكر ملاحظة واحدة تؤيد ما قدمته ، وهو أن نساء الافرنج على العموم ـ مهما كان حالهن فى الباطن ـ يحافظن على الظواهر ، فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضا أياما وأشهرا ولا يكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافيا بينهما ، وتراهن فى الطريق سائرات مرتديات بجلابيب الجد والسكينة والوقار ، يغضضن أبصارهن عن الرجال ، وان نظرن اليهم فمن طرف خفى ٠ أما نساؤنا العفيفات فيغلب فيهن أن يكون باطنهن خيرا من ظاهرهن ، ومتى رأت الواحدة منهن رجلا نظرت اليه وتأملته والتفتت نحوه

ولوت عنقها اليه ، ولا شعور لها بأن مثل هذه الحركات التى تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها · أما الفريق الآخر من النساء فى بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا تسل عما يصدر منهن فى الطرق والمجتمعات العامة من الأمور المخلة بالأدب التى يستحى القلم أن يجرى برسمها ، هـذا الفريق من الأجـانب يصعب تمييزه عن الحرائر الا ببعض أمور يعرفها أهل الخلاعة ·

ثم ان البطالة التى ألفتهـا نفوس النساء عندنا ، وصارت كأنها من لوازم حياتهن ، هى أم الرذائل · ان كان نساؤنا لا يعملن شيئا فى المنازل ، ولا يحترفن بصنعة ، ولا يعرفن فنا ، ولا يشتغلن بعلم ، ولا يقرأن كتابا ، ولا يعبدن الله ، فبماذا يشتغلن حينئذ ؟ أقول لك ـ وأنت تعلم مثلى ـ ان ما يشغل امرأة الغنى والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع الى ما لا نهاية له ، ويتشكل فى كل آن بشكل جديد ، وهو ينبوع رضاها أو سخطها على حسب الأحوال ، ذلك الأمر هو علاقتها مع زوجها · فتارة تتخيل أنه يكرهها ، وتارة تظن أنه يحبها ، وأحيانا تقارنه بأزواج جاراتها ، فيخـرج من هذا الامتحـان الصعب كاسبا أو خاسرا ، وأحيانا تجرب ميله لتعلم هل تغير أو هو باق ، وأحيانا تدبر طريقة لتغيير قلبه على ذوى قرابته ، لتنزع منه محبتهم ان كان ودودا لهم ، ولا تغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمات ، وتراقب لحظاته عند دخول الزائرات ، وتجعله دائما موضوع الشك · ومن وسائل الاحتياط ألا تقبل الخادمة الا اذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر وبشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمن ميل زوجها اليها · ولا تستريح من هذا الشاغل الا اذا أفرغته فى أذن أخرى من أمثالها · فاذا فرغت من تصويره فى العبـارات ، رجعت الى تمثيله فى الخيالات ، وهكذا · لهذا ترى اذا اجتمعت مع جاراتها وصواحبها تصـاعدت مع دخان السجاير وبخـار القهوة زفراتها ،

وارتفع صوتها ، فتقص ما بينها وبين زوجها وأقارب زوجها وأصحاب زوجها ، وحزنها وفرحها وهمها وسرورها ، وتفرغ كل ما فى صدرها حتى لا يبقى سر من أسرارها ـ ولو كان متعلقا بالفراش ـ الا وقد أخبرت به ٠

هذا اذا كانت المرأة محبة لزوجها ٠ أما اذا كانت لا تميل لزوجها ، أو كانت غير متزوجة ، فأكرر سؤالى بماذا تشتغل حينئذ ؟ أما الأولى فانها تفكر فى طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه ، وأما الثانية فأعظم همها أن تشتغل كذلك بالبحث عن زوج أيا كان ، ولا تضيع وقتها فى حسن انتقاء الرجل الذى يصح أن يكون زوجا ، فانها انما تطلب رجلا ٠ ومن البدهى أن المرأة التى يكون هذا حالها ان كانت فاسدة الأخلاق ، ووجدت فرصة ، لا تتأخر عن انتهازها ، ولا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدم له أفضل شىء لديها ، وهو نفسها ٠

وعلى خلاف ذلك يكون أمر النساء المتعلمات ٠ اذا جرى القدر عليهن بأمر مما لا يحل لهن لم يكن ذلك الا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحوال المحبوب وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت ، وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لا يكون أهلا لها ، ولا تسلم نفسها الا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الأمزجة ، وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعفف ، وتخفى ما فى نفسها عن أخص الناس بها ٠

والمعول فى كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الأخلاق التى نشأت عليها المرأة فى تربيتها الابتدائية ٠ فان اعتادت أن تشغل أوقاتها بالمطالعة ومزاولة الأعمال المنزلية ، وتربت بين أهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجد والاستقامة ، وغاب من بينهم كل ما يؤثر فى مشاعرها أثرا غير صالح ، أو يهيج حسها الى أمر غير

لائق ، وتعودت أن تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية ـ كان من النادر أن تحيد عن الطريق المستقيم ، وأن تلقى بنفسها فى غمرات الشهوات التى لا تسلم ـ مهما كانت ـ من الخطر والعذاب والنـــدم ٠

وبالجملة فانا نرى أن تربية العقل والأخلاق تصـون المرأة ولا يصونها الجهل ، بل هى الوسيلة العظمى لأن يكون فى الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه ٠ وأرى أن من يعتمد على جهل امرأته مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصيرهما أن يترديا فى أول حفرة تصادفهما فى الطريق ؟

حجــاب النســاء

سبق لى البحث فى الحجاب بوجه اجمالى فى كتاب نشرته باللغة الفرنســية من أربع سنين مضت ردا على الدوق داركور ، وبينت هناك أهم المزايا التى سمح لى المقام بذكرها ، ولكن لم أتكلم فيما هو الحجاب ، ولا فى الحد الذى يجب أن يكون عليه • وهنا أقصد أن أتكلم فى ذلك •

ربما يتوهم ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فاننى لا أزال أدافع عن الحجاب و أعتبره أصلا من أصول الأدب التى يلزم التمسك بها ، غير أنى أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية وهو ـ على ما فى تلك الشريعة ـ يخالف ما تعارفه الناس عندنا ، لما عرض عليهم من حب المغالاة فى الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملا بالأحكام حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة •

والذى أراه فى هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة وما لا ترضاه عاطفة الحياء • وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات ، وحرمناها كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية• وبين هذين الطرفين وسط سنبينه ـ هو الحجاب الشرعى ـ وهو الذى أدعو اليه •

انى أشعر أن القارىء الذى سار معى الى هده النقطة ، وتبعنى فيما دعوته اليه من وجوب تربية النســاء ، ربما يستجمع قواه لمقــاومتى فيما أطلب من الرجــوع بالحجاب الى الحد الشرعى ، ويستنجد جميع الأوهام التى خزنتها فى ذهنه أجيال طويلة ، ليدافع عن العادة الراسخة الآن • ولكن مهما استجمع من قوة الدفاع عنها، ومهما بذل من الجهد للمحافظة عليها ، فلا سبيل الى أن تبقى زمنا طــويلا •

ماذا تفيد الشجاعة والثبات فى المحافظة على بناء آل أمره الى الخراب والتهدم وقد انقض أساسه وانحلت مواده ووصل حاله من الاضمحلال الى أنك ترى فى كل سنة تمر جزءا منه ينهار من نفسه؟ أليس هذا كله صحيحا ؟ أليس حقا أن الحجاب فى هذه السنين الأخيرة ليس كما كان من عشرين سنة ؟ أليس من المشاهد أن النساء فى كثير من العائلات يخرجن لقضاء حاجاتهن ، ويتعاملن بأنفسهن مع الرجال فيما يتعلق بشئونهن ، ويطلبن ترويح النفس حيث يصفو الجو ويطيب الهواء ، ويصحبن أزواجهن فى أسفارهن ، ونرى أن هذا التغير حدث فى عائلات كانت أشد الطبقات تحرجا من ظهور النساء ؟

اذا قارنا بين ما نشاهد اليوم وما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيد عنا ، حيث كان يشين المرأة أن تخرج من بيت زوجها، وأن يرى طولها أجنبى ، وكان اذا عرض للمرأة سفر اتخذ كل احتياط ليكون سفرها ليلا حتى لا يراها أحد من الناس ، وحيث كانت أم الرجل أو أخته أو ابنته تستحى أن تجلس معه على مائدة واحدة ــ اذا قارنا بين هذا وذاك نجد بلا شك أن هذه العادة آخذة فى الزوال من نفسها •

وكل من عــرف التاريخ يعلم أن الحجــاب دور من الأدوار التاريخية لحيــاة المرأة فى العالم • قال « لاروس » تحت كلمــة

خمار : « كانت نساء اليونان يستعملن الخمار اذا خرجن ، ويخفين وجههن بطرف منه كما هو الآن عند الأمم الشرقية » . وقال : « ترك الدين المسيحي للنســاء خمارهن فى الطـريق وفى وقت الصلاة . وكانت النساء تستعمل الخمار فى القرون الوسطى ، خصوصا فى القرن التاسع ، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريبا . واستمر كذلك الى القرن الثالث عشر حيث صارت النساء تخفف منه الى أن صار كما هو الآن نسيجا خفيفا يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن بقى بعد ذلك بزمن فى اسبانيا وفى بلاد أمريكا التى كانت تابعة لها » .

ومن هذا يرى القارىء أن الحجاب الموجود عندنا ليس خاصا بنا ، ولا أن المسلمين هم الذين استحدثوه ، ولكنه كان عادة معروفا عند كل الأمم تقريبا ، ثم تلاشت طوعا لمقتضيات الاجتماع وجريا على سنة التقدم والترقى . وهذه المسألة المهملة يلزم البحث فيها من جهتيها الدينية والاجتماعية .

الجهـة الدينيـة

لو أن فى الشريعة الاســلامية نصوصا تقضى بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه ، ولما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص ، مهما كانت مضرة فى ظاهر الأمر ، لأن الأوامر الالهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولا مناقشة . لكننا لا نجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة . وانما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها ، وأخـذوا بهـــا ، وبالغوا فيهـــا ، وألبسوها لباس الدين ، كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين ، والدين براء منها . ولذلك لا نرى مانعا من البحث فيها ، بل نرى من الواجب أن نلم بهـا، ونبين حكم الشريعة فى شأنها وحاجة الناس الى تغييرها .

جــــاء فى الكتاب العزيز :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم • ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون • وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها • وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النســاء • ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » ••

أباحت الشريعة فى هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض أعضــاء من جسمها أمام الأجنبى عنها غير أنها لم تسم تلك المواضع • وقد قال العلماء انها وكلت فهمها وتعيينها الى ما كان معروفا فى العادة وقت الخطــاب • واتفق الأئمة على أن الوجــه والكفين مما شمله الاستثناء فى الآية ، ووقع الخلاف بينهم فى أعضاء أخر كالذراعين والقدمين • جاء فى ابن عابدين : « وعورة الحرة جميع بدنها حتى شعرها النازل فى الأصح خلا الكفين والقدمين على المعتمد ، وصوتها على الراجح وذراعيها على المرجوح • وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه لا لأنه عورة بل لخوف الفتنة كمسه وان أمن الشهوة لأنه أغلظ ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة كما يأتى فى الحظر ولا يجوز النظر اليه بشهوة كوجه أمرد • فأنه يحرم النظر الى وجهها ووجه الأمرد اذا شك فى الشهوة • أما بدونها فيباح ولو جميلا » (١) •

وذكر فى كتاب « الروض » فى المذهب الشافعى : « نظر الوجــه والكفين عند أمن الفتنة من المرأة للرجل وعكسه جائز •

---

(١) صفحة ٣٣٦ ، جزء ١ •

ويجور نظر وجه المراة عند المعامله وعند تحمل الشهادة ، وتكلف كشفه عند الأداء » (١) ٠

وجاء فى « تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق » لعثمان بن على الزيلعي : وبدن الحرة عورة الا وجهها وكفيهـا وقدميهـا لقوله تعـالى :

« ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » ٠٠

والمراد محل زينتهن وما ظهر منها الوجـه والكفـان ٠ قال ابن عباس وابن عمر ٠ واستثنى فى المختصر الأعضاء الثلاثة للابتلاء بابدائها ولأنه عليه الصلاة والسلام نهى المحرمة عن لبس القفازين والنقـاب ٠ ولو كان الوجه والكفان من العورة لما حـرم سترهما بالمخيط ٠ وفى القدم روايتان والأصح أنها ليست بعورة للابتلاء بابدائها (٢) ٠

وحكم الوجه والكفين وأنها ليست بعورة معروف كذلك عند المالكيـة والحنابلة ٠ ولا نطيـل الكلام بنقل نصوص أهل هذين المذهبين ٠

ومما يروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ان أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فقال لها يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها الا هذا وهذا وأشار الى وجهه وكفيه » ٠ وورد أيضا فى كتاب « حسن الأسوة » للسيد محمد صديق حسن خان بهادر : « وانما رخص للمرأة فى هذا القدر ، لأن المرأة لا تجد بدا من مزاولة الأشياء بيديها ، ومن الحاجة الى كشف وجهها خصـوصا

---

(١) صفحة ١٠٩ ، ١٠٤ ، جزء ٢ ٠
(٢) صفحة ٩٦ ، جزء ٣ ٠

في الشهادة والمحاكمة والزواج · وتضطر الى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن » (١) ·

خولت الشريعة للمرأة ما للرجل من الحقوق ، وألقت عليها تبعـة أعمالها المدنية والجنـائية ، فللمرأة الحق فى ادارة أموالها والتصرف فيها بنفسها · فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من غير أن يراها ويتحقق شخصيتها ؟

ومن غريب وسائل التحقق أن تحضر المرأة معلقة من رأسها الى قدميها ، أو تقف من وراء ستار أو باب ، ويقال للرجل ها هى ذى فلانة التى تريد أن تبيعك دارها ، أو تقيمك وكيلا فى زواجها مثلا ، فتقول المرأة بعت أو وكلت ، ويكتفى بشهادة شاهدين من الأقارب أو الأجانب على أنها هى التى باعت أو وكلت ، والحال أنه ليس فى هذه الأعمال ضمانة يطمئن لها أحد · وكثيرا ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير فى مثـل هذه الأحوال · فكم رأينا أن امرأة تزوجت بغير علمها ، وأجرت أملاكها بدون شعورها ، بل تجردت من كل ما تملكه على جهل منها ، وذلك ناشىء من تحجبهـا وقيام الرجال دونها يحولون بينهـا وبين من يعاملها ·

كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة ؟ كيف يمكن لخادمة محجوبة أن تقوم بخدمة بمنزل فيه رجال ؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة أن تدير تجارتها بين الرجل ؟ كيف يتسنى لزارعة محجوبة أن تفلح أرضها وتحصد زرعهـا ؟ كيف يمكن لعاملة محجـوبة أن تباشر عملها اذا أجرت نفسها للعمل فى بناء بيت أو نحوه ·

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ، ومكن فيه النوع الانسانى،

---

(١) صفحة ٩٢ ·

ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه في الوصول اليه ، ووضع للتصرف فيه حدودا تتبعها حقوق ، وسوى فى التزام الحدود التمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع ، ولم يقسم الكون بينهما قسمة افراز ، ولم يجعل جانبا من الأرض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن ، وجانبا للرجال يعملون فيه فى عزلة عن النساء ، بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين شائعا تحت سلطة قواهما بلا تمييز ـ فكيف يمكن مع هذا لامرأة أن تتمتع بما شاء الله أن تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى ، وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال ، اذا حظر عليها أن تقع تحت أعين الرجال الا من كان من محارمها ؟ لا ريب أن هذا مما لا يسمح به الشرع ، ولن يسمح به العقل · لهذا رأينا أن الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ، كما نشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى حتى من أهل الطبقة الوسطى بل بعض أهل الطبقة العليا من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه فى أهل المدن ؟

اذا وقفت المرأة فى بعض مواقف القضاء خصما أو شاهدا فكيف يسوغ لها ستر وجهها ؟ مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم أنفسهم غافلون عما يهم فى هذه المسألة ، متساهلون فى رعاية الواجب فيها ، فهم يقبلون أن تحضر المرأة أمامهم مستترة الوجه ، وهى مدعية أو مدعى عليها أو شاهدة ، وذلك منهم استسلام للعوائد · وليس بخاف ما فى هذا التسامح من الضرر الذى يصعب استمراره فيما أظن ، ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ، ولما فى ذلك من سهولة الغش · كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه أن يعرف تلك التى تخاصمه ، وله فى ذلك فوائد كثيرة ، من أهمها صحة التمسك بقولها · ولا أظن أنه يسوغ للقاضى أن يحكم على شخص مستتر الوجه ، ولا أن يحكم

له ، ولا أظن أنه يسوغ له أن يسمع شاهدا كذلك • بل أقول ان أول واجب عليه أن يتعرف وجه الشاهد والخصم خصوصا فى الجنايات • والا فأى معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده ؟ وماذا تفيد معرفة هذه الأمور كلها اذا لم يكن معروفا بشخصه ؟

والحكمة فى أن الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة ــ كما مر ــ ظاهرة ، وهى تمكن القاضى من التفرس فى الحركات التى تبدو على الوجه والعلامات التى تظهر عليه ، فيقدر الشهادة بذلك قدرها •

لا ريب أن ما ذكرنا من مضار التحجب يندرج فى حكمة اباحة الشرع الاسلامى كشف المرأة وجهها وكفيها ــ ونحن لا نريد أكثر من ذلك •

واتفق أئمة المذاهب أيضا على أنه يجوز للخاطب أن ينظر الى المرأة التى يريد أن يتزوجها ، بل قالوا بندبه عملا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال لأحد الأنصار ــ وكان قد خطب امرأة ــ « أنظرت اليها » ؟ قال : لا • قال : « انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » •

هذه هى نصوص القرآن وروايات الأحاديث وأقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية فى أن الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها ، وذلك للحكم التى لا يصعب ادراكها على كل من عقل •

هذا حكم الشريعة الاسلامية كله يسر لا عسر فيه على النساء ولا على الرجال ، ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفى ما فيه من الحرج عليهما فى المعاملات والمشقة فى أداء كل منهما ما كلف به من الأعمال سواء كان تكليفا شرعيا أو تكليفا قضت به ضرورة المعاش •

أما دعوى أن ذلك من آداب المرأة فلا اخالها صحيحة لأنه لا أصل يمكن أن ترجع اليه هذه الدعوى • وأى علاقة بين الأدب وكشف الوجه وستره ؟ وعلى أى قاعدة بنى الفرق بين الرجل والمرأة ؟ أليس الأدب فى الحقيقة واحدا بالنسبة للرجال وللنساء وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الأشكال والملابس ؟

وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسألة تقريبا فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقديره ولا هن مطالبات بمعرفته • وعلى من يخاف الفتنة من الرجال أن يغض بصره ، كما أنه على من يخافها من النساء أن تغض بصرها • والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة الى كل من الفريقين بغض البصر على السواء • وفى هذا دلالة واضحة على أن المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها •

عجبا ! لم لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء اذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة ، واعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه ، واعتبرت المرأة أقوى منه فى كل ذلك حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال مطلقا خوف أن ينفلت زمام هوى النفس من اطة عقل الرجل ، فيسقط فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخلق ؟! ان زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافا منه بأن المرأة أكمل استعدادا من الرجل ــ فلم توضع حينئذ تحت رقه فى كل حال ؟ فان لم يكن هذا الاعتبار صحيحا فلم هذا التحكم المعروف ؟

على أن البرقع والنقاب مما يزيد فى خوف الفتنة ، لأن هذا النقاب الأبيض الرقيق الذى تبدو من ورائه المحاسن وتختفى من خلفه العيوب ، والبرقع الذى يختفى تحته طرف الأنف والفم

والشـــدقان ويظهـــر منـــه الجبين والحواجب والعيـــون والخدود والأصداغ وصفحات العنق ــ هذان الساتران يعدان فى الحقيقة من الزينة التى تحت رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتتان بكثير ظهر ٠ ولو أن المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان فى مجموع خلقها ما يرد فى الغالب البصر عنها ٠

ليست أسباب الفتنة ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة ، بل من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات فى أثنـاء مشيها ، وما يبدو من الأفاعيل التى ترشد عما فى نفسها ٠ والنقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على اظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول فلانة أو بنت فلان أو زوجة فلان كانت تفعل كذا ، فهى تأتى كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية ذاك البرقع وهذا النقاب ٠ أما لو كان وجهها مكشوفا فان نسبتها الى عائلتها أو شرفها فى نفسها يشعرانها الحياء والخجل ، ويمنعانها ابداء حركة أو عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات النظر اليها ٠

والحق أن الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية ، لا للتعبد ولا للأدب ، بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام والباقية بعـده ٠ ويدلنا على ذلك أن هذه العـادة ليست معروفة فى كثير من البلاد الاسلامية وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التى لم تتدين بدين الاسلام ٠

انما من مشروعات الاسلام ضرب الخمر على الجيوب كما هو صريح الآية ، وليس فى ذلك شيء من التبرقع والانتقاب ٠

هذا ما يتعلق بكشف الوجه واليدين ٠ أما ما يتعلق بالحجاب بمعنى قصر المرأة فى بيتها والحظر عليها أن تخالط الرجال فالكلام فيه ينقسم الى قسمين : ما يختص بنساء النبى صلى الله عليه وسلم وما يتعلق بغيرهن من نساء المسلمين ٠ ولا أثر فى الشريعة لغير هذين القســمين ٠

أما القسم الأول فقد ورد فيه ما يأتى من الآيات :

« يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم ... واذا سألتموهن متاعا فأسألوهن من وراء حجاب ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما » ..

« يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

ولا يوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه من أى مذهب كانت ولا فى كتب التفاسير فى أن هذه النصوص الشريفة هى خاصة بنساء النبى صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب وبين لنا سبب هذا الحكم ، وهو أنهن لسنا كأحد من النساء . ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت أسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن ، فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين » (١)

وأما القسم الثانى فغاية ما ورد فى كتب الفقه عنه حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم نهى فيه عن الخلوة مع الأجنبى وهو : «لا يخلون رجل بامرأة الا مع ذى محرم» قال ابن عابدين : « الخلوة بالأجنبية حرام الا لملازمة مديونه هربت ودخلت خربة أو كانت عجوزا شوهاء أو بحائل ـ وقيل الخلوة بالأجنبية مكروهة كراهة تحريم . وعن أبى يوسف ليست بتحريم » (٢) .

---

(١) صفحة ١٢٦ من كتاب حسن الأسوة .

(٢) صفحة ٣٢٣ ، جزء خامس .

وقال : « ان الخلوة المحرمة تنتفى بالحائل وبوجود محرم أو امـرأة ثقة قادرة ـ وهل تنتفى أيضـــا بوجود رجل آخـر ؟ لم أره) (١) ٠

بما يقال ان ما فرضه الله على نساء نبيه يستحب اتبـاعه لنساء المسلمين كافة ـ فنجيب أن قوله تعالى : « **لستن كأحـد من النساء** » يشير الى عدم الرغبة فى المساواة فى هذا الحكم ، وينبهنا الى أن فى عدم الحجاب حكما ينبغى لنا اعتبارها واحترامها ، وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الأسوة ٠ وكما يحسن التوسع فيما فيه تيسير أو تخفيف كذلك لا يجمل الغلو فيما فيه تشـديد وتضييق أو تعطيل لشىء من مصالح الحياة ، وعلى هـذا وردت آيات الكتاب المبين ٠ قال تعالى :

« **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » ٠٠

وقـال :

« **ما جعل عليكم فى الدين من حرج** » ٠٠

وقال أيضـــا

« **يايها الذين آمنوا لا تسالوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم** » ٠٠

ولو كان اتباع الأسوة مطلوبا فى مثل هذه الحالة لما رأينا أحد الخلفاء المشهورين بشدة التقوى والتمسك بالسنة يجرى فى عائلته على ما يخالف الحجاب ٠ واستدل على ذلك بذكر الواقعـة الآتيـة :

---

(١) صفحة ٣٢٤ ، جزء خامس ٠

بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بواقعة حربية . فلما وصل ذلك الرجل الى بيت عمر قال : « فاستأذنت وسلمت ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، فاذا هو جالس على مسح متكىء على وسادتين محسوتين ليفا فنبذ الى باحداهما فجلست عليها واذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال : « يا أم كلثوم غداءنا » فأخرجت اليه خبزة بزيت فى عرضها ملح لم يدق . فقال : « يا أم كلثوم ألا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا ؟ » قالت : « انى أسمع عندك حس رجل » . قال : « نعم ولا أراه من أهل البلد » . قال فذلك حين عرفت أنه لم يعرفنى قالت : « لو أردت أن أخرج الى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته ، وكما كسا الزبير امرأته ، وكما كسا طلحة امرأته » قال : « أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر » ـ فقال : « كل ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا » (١) .

وفضلا عن كون الشرع لا يوجب ذلك الحجاب فانه مجرد عن الفائدة بل فيه مضرات شتى نأتى على بيانها فى المبحث الآتى :

الجهة الاجتماعية

انا نطلب تخفيف الحجاب ورده الى أحكام الشريعة الاسلامية لا لأننا نميل الى تقليد الأمم الغربية فى جميع أطوارها وعوائدها ، لمجرد التقليد أو للتعلق بالجديد لأنه جديد ، فاننا نتمسك بعوائدنا الاسلامية ونحترمها ، ونرى أنها مزاج الأمة التى تتماسك به أعضاؤها ، ولسنا ممن ينظر اليها نظرة الى الملابس يخلع ثوبا كل يوم ليلبس غيره . وانما نطلب ذلك لأننا نعتقد أن لرد الحجاب

---

(١) صفحة ٢٧١٦ تاريخ الطبرى ، جزء خامس

الى أصله الشرعي مدخلا عظيما في حياتنا المعاشية . لسنا في مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق أو منافرته، وانما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة أو ما به قوام حياتنا .

كلامنا الآن في هل يلزمنا أن نعيش ونحيا ، أو يقضى على أنفسنا بأن نموت ونفنى ؟ هل علينا أن نهتز مكاننا ونرضى بما وجدنا عليه آباءنا ، والناس من حولنا يتسابقون الى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهد القوة ، ويمرون علينا سراعا ونحن شاخصون اليهم ، اما غير شاعرين بموقفنا واما شاعرين ولكنا حيارى ذاهلون ؟ أو من الواجب علينا أن ننظر كيف تقدم الناس وتأخرنا ؟ كيف تقووا وضعفنا ؟ كيف سعدوا وشقينا ؟ ثم نرجع أبصارنا كرة ثانية في ديننا وما كان عليه أسلافنا الصالحون ، ثم نقتدى بهم في استماع القول واتباع أحسنه وانتقاد الفعل والأخذ بأفضله ، ونسير في طرق السعادة والارتقاء والقوة مع السائرين ذلك هو الأمر الخطير الذى وجهنا اليه نظرنا .

ها هى ذا مسألة الحجاب ، مسألة من أهم المسائل ولها مكان عظيم في شئون الأمة . اذا ترك القارىء نفسه لعواطفه واستسلم الى عوائده ظهر له الحجاب في مظهر حسن لأنه ألفه في صغره ونشأ بين المحجبات وعاش معهن حتى صار ذلك عادة مألوفة له . ثم انه ورثه عن آبائه وأجداده فلا يستغربه بل يميل اليه ميلا غريزيا ليس للعقل فيه مدخل وانما هو حركة ميكانيكية ليس الا . وأما اذا نزع من نفسه العوامل التى أحدثت فيه تلك العواطف ، وخلع ما ألبسه اياه أسلافه من أردية الوراثة ، وبعث في المسألة من جميع جهاتها بحث من لم يتأثر الا بالتجربة التى تجرى في الوقائع الصحيحة ، وحصل لنفسه رأيا من ملاحظاته الشخصية ، وكان ممن تنجذب نفسه الى الحق وتنبعث الى السعى للوقوف عليه وتأييده لما له عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع ، وكان لا يغش نفسه بالتزويق واالتزيين الوهميين ، وانما يسمع صوت وجدانه

السليم ويرجحه على كل هوى سواه مهما كانت درجته من التمكن فيمن حوله من الناس ـ فعند ذلك يرى أن المرأة لا تكون ، ولا يمكن أن تكون ، وجودا تاما الا اذا ملكت نفسها ، وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معا ، ونمت ملكاتها الى أقصى درجة يمكنها أن تبلغها · ويرى أن الحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها ، وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها ·

بينا عند الكلام على تربية المرأة ما لها من المزايا الجليلة والآثار الحسنة التي تترتب عليها في شؤونها نفسها وشؤون بيتها وفي الاجتماع الذي هي فيه ، وذكرنا أن من أكبر أسباب ضعف الأمة حرمانها من أعمال النساء ، وأن تربية الطفل لا تصلح الا اذا كانت أمه مرباة ، وقررنا أن الولد ذكرا كان أو أنثى لا يملك صحة ولا خلة ولا ملكة ولا عقلا ولا عاطفة الا من طريقين : الوراثة والتربية ، واستدللنا على أن الولد يرث من أمه قدر ما يرث من والده على الأقل ، وأن تأثير الأم في تربية الطفل بعد ولادته أعظم من تأثيرات أبيه ، ونريد أن نبرهن هنا على أن تربية الأم نفسها لا يمكن أن تتم اذا استمر حجاب النساء على ما هو عليه الآن ، حتى اذا انتهى القارىء من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض ، وكيف أن أصغرها يتوقف عليه أعظمها :

اذا أخذنا بنتا وعلمناها كل ما يتعلمه الصبي في المدارس الابتدائية ، وربيناها على أخلاق حميدة ، ثم قصرناها في البيت ، ومنعناها مخالطة الرجال ، فلا شك أنها تنسى بالتدريج ما تعلمته · وتتغير أخلاقها على غير شعور منها ، وفي زمن قليل لا نجد فرقا بينها وبين أخرى لم تتعلم أصلا ، ذلك لأن المعارف التي يكسبها الانسان وهو في سن الصبا لا يحيط بدقائقها ومناشئها ، ولذلك لا يكون علمه فيها تاما كاملا ، وانما يتم له شيء من ذلك اذا بلغ سن الرجولة واستمر على مزاولة العمل والاشتغال ، فالصبي يحفظ أسماء الأشياء أكثر مما يفهم ، وأكبر فائدة يستفيدها في

هذا الطور من التعليم انما هي التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة · فان وقف سير التعليم في هـذه السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتثرت من الذهن شيئا فشيئا ، وكان ما مضى من الوقت في التعلم زمنا ضائعا ·

ولما كانت السن التي تحجب فيها المرأة ـ وهي ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها ـ هي السن التي يبتدىء فيها الانتقال من الصبا الى الرجولية وتظهر فيها حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل الى اختبار العالم والبحث عن الحياة وما تستدعيه، وهي السن التي تزهر فيها الملكات وتظهر الميول والوجدانات ، وهي السن التي يتعلم فيها الانسان نوعا آخر من العلم أنفس مما تعلمه في المدارس ، وهو علم الحياة · وطريق تحصيل ذلك العلم انما هو بالاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف أخلاقهم · وفي هذه السن يبتدىء الانسان يعرف شعبه وملته ووطنه ودينه وحكومته · وفي هـذه السن يبتدىء استعداد كل شخص وميله وكفاءته في الظهور فيندفع الى الأعمال اندفاع الماء في المنحدرات · وهي سن الآمال والرغائب والنشاط ـ فان حجبت فيها الفتاة ، وانقطعت عن هذا العالم بعد أن كانت المواصلة بينه وبينها مستمرة ، وقف نموها ، بل رجعت القهقرى ، وفقدت كل ما كان يزين نفسها ، ونسيت كل معارفها ، وخابت كل مساعيها ، وضاعت آمالها وآمال الناس فيها ، ولا ذنب عليها في ذلك فهي عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان المؤبد من الترقي والكمال ·

ربما يقال ان في طوع المرأة وامكانها أن تستكمل تربيتهـا وتتم دراستها في بيتها ، وهو وهم باطل ، فان الرغبة في اكتساب العلم والتشوف لاستطلاع ما عليه الناس في أحوالهم وأعمالهم وحب استكشاف الحقائق وكل ما يستميل النفس الى المطالعة والدرس لا يتوافر للمرأة مع حجابها ، ذلك لأن الحجاب يحبس المرأة في دائرة ضيقة ، فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف الا ما يقع فيها من سفاسف

الحوادث ، ويحول بينها وبين العالم الحي وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل اليها منه شيء ، وان وصل اليها بعضه فلا يصل الا محرفا مقلوبا • أما اذا استمرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجي فانهـا تكتسب بالنظـر في حوادثه وتجربة ما يقع فيه معارف غزيرة تنبث فيهـا من المخالطات والمعـاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم في جميع مظاهر الحياة • وقد يكفي في اعانتها على كسب ذلك كله والانتفـاع منه ما حصلته بالتعلم من المعـارف الأولى ، وربما يمكنها أن تستغني عن تعلم تلك المعـارف الأولى اذا حسنت الفطرة وجادت القريحة •

وعلى فرض أن المرأة يمكنها في احتجابها أن تستكمل ما نقص منها علما وأدبا بقراءة الكتب فمن البديهي أن كل ما تحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل • ولو عاملنا اخوتها الصبيان كما نعاملها ، أو حجبناهم في البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشرة لكانت النتيجة واحـدة • بل لو أخذنا رجلا بلغ الأربعين من عمره وحجبناه عن العالم ، وألزمناه أن يعيش بين أربعة جـدران وسط النساء والأطفـال والخدم لشعر بانحطاط تدريجي في قواه العقلية والأدبية ، ولابد أن يأتي يوم يجد فيه نفسه مساويا لهم : فاذا يكون من الخطأ أن نتصور أننا متى علمنا بناتنا جاز لنا أن نحجبهن متى بلغن سنا مخصوصة ، وأن مجـرد ذلك التعليم الأول يكفي في التوقي من الضرر ، لأن الضرر في الحجاب عظيم ، وهو ضياع ما كسبنه بالتعلم وحرمانهن الترقي في مستقبل العمر ، والأمر في ذلك واضح لا يحتاج الى دليل • ويكفينا أن نرجع الى أنفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه في الخامسة عشرة من عمرنا فيتبين لنا أننا كنا أشبه بالأطفال لا نكاد نعلم شيئا من العالم ولا نعرف للحياة قيمة ولا نميز كمال التمييز بين ما لنا وما علينا ولا تمتاز لدينا حقوقنا وواجباتنا وليس لنا عزيمة ثابتة في مجاهدة أنفسنا ، وأن أكبر عامل له أثر في تكميلنا

هو استمرار تعلمنا وتربية عقولنا ونفوسنا استمرارا لا انقطاع معه ، وأن ذلك لم يتم لنا بقراءة الكتب بل بالمشاهدة والممارسة والمخالطة وتجربة الناس والحوادث .

وفي الحقيقة أن تربية الانسان ليس لها سن معينة تنقطع بعدها ، ولا حد معروف تنتهي عنده ، فهي لا تنال بحفظ مقدار من العلوم والمعارف يجهد الانسان نفسه في اكتسابه سنين معدودة ثم يقضي حياته بعد ذلك في الراحة .

التربية ليست ذلك الشيء البسيط الذي يفهمه عامة الناس حيث يتصورون أنها عبارة عن تخزين كمية من المعارف المقررة في بروجرامات المدارس ، ثم امتحان ، ثم شهادة ليس بعدها الا البطالة والجمود . وانما التربية هي العمل المستمر الذي تتوسل به النفس الى طلب الكمال من كل وجوهه ، وهذا العمل لابد منه في جميع أدوار الحياة حيث يبتدىء من يوم الولادة ولا ينتهي الا بالموت .

واذا أراد القارىء أن يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب على وجه لا يبقى للريب معه مجال فما عليه الا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات في المدن لم يسبق لها تعليم ، فانه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة وتلعب البيانو ، ولكنها جاهلة بأطوار الحياة بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها . ويجد الثانية - مع جهلها - قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التي مرت عليها ، وأن كل ذلك قد أفادها اختبارا عظيما ، فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى .

ومن هذا نرى أغلب نساء نصارى الشرق - وان لم يتعلمن في المدارس أكثر مما يتعلمه بعض بناتنا الآن - يعرفن لوازم الحياة ، ولكثرة ما رأين وسمعن باختلاطهن بالرجال ، فقد ورد على عقولهن

معان وأفكار وصور وخواطر غير ما استفدنه من الكتب ، فارتفعن بفضل هذا الاختلاط الى مرتبة أعلى من المرأة المسلمة المواطنة لهن مع أنهن من جنس واحد واقليم واحد ٠

نرى في المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعي ما يؤهلها لأن تكون مساوية لغيرها فى الأمم الأخرى ، لكنها اليوم فى حالة انحطاط شديد ، وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها ٠

وقد جرنا حبنا لحجاب النساء الى افساد صحتهن ، فألزمناهن القعود في المساكن ، وحرمناهن الهواء والشمس وسائر أنواع الرياضة البدنية والعقلية ٠

ليس فينا من لا يعرف أن من النساء من لا يفارقن بيوتهن ليلا أو نهارا ، بل يلازمنها ، ولا يرين لهن شريكا فى الوجود الا جارية أو خادمة أو زائرة تجيئها لحظات من الزمن وتنصرف عنها ، ولا يرين أزواجهن الا عند النوم لأنهم يقضون نهارهم فى أشغالهم ويقضرن الجزء العظيم من ليلهم عند جيرانهم أو فى الأماكن العمومية ٠

ليس فينا من لا يعرف أن نساء كثيرة فقدن صحتهن في هذه المعيشة المنحطة وفي هذا السجن المؤبد ، وأنهن عشن عليلات الجسم والروح ، ولم يذقن شيئا من لذة هذه الحياة الدنيا ٠

لذلك كان أغلب نسائنا مصابا بالتشحم وفقر الدم ، ومتى ولدت المرأة مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزا وهى فى ريعان شبابها ٠ كل ذلك منشؤه خوف الرجال من الاخلال بالعفة !

على أن القول بأن الحجاب موجب العفة وعدمه مجلبة الفساد، قول لا يمكن الاستدلال عليه ، لأنه لم يقم أحد الى الآن باحصاء عام يمكن أن تعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والدقة في البلاد

التى تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفى البلاد الأخرى التى تتمتع فيها بحريتهن • ولو فرض وقوع مثل ذلك الاحصاء لما قام دليلا على الاثبات أو النفى فى المسألة لأن ازدياد الفساد فى البلاد ونقصه مما يرتبط بأمور كثيرة ليس الحجاب أهمها •

ومن المعروف أن لطرق معيشة الأمة ومزاجها واقليمها وآدابها وتربيتها دخلا عظيما فى فساد أخلاقها وصلاحها ، ولهذا نرى الفساد يختلف فى بلاد أوربا بين بلد وآخر اختلافا ظاهرا ، ونرى أيضا مثل هذا الاختلاف بين البلاد التى لا تزال فيها عادة الحجاب باقية ، بل نرى اختلافا كبيرا بين زمن وزمن فى بلد واحد • والتجارب ترشد الى أمر يمكن أخذه دليلا على أن الاطلاق أدنى بالنساء الى العفة من الحجاب • فمن المشاهد الذى لا جدال فيه أن نساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية ، وهن أكثرهن اختلاطا ، حتى ان البنات فى صباهن يتعلمن مع الصبيان فى مدرسة واحدة ، فتقعد البنت بجانب الصبى لتلقى العلوم ، ومع هذا يقول المطلعون على أحوال أمريكا ان نساءها أحفظ للأعراض وأقوم أخلاقا من غيرهن ، وينسبون صلاحهن الى شدة الاختلاط بين الصنفين من الرجال والنساء فى جميع أدوار الحياة • ومن المشاهد الذى لا نزاع فيه أيضا أن نساء العرب ونساء القرى المصرية مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى أوربا تقريبا أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللائى لم يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد •

وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة • والسبب فى ذلك أن الأولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم ، فاذا رأت رجلا أيا كان لم يحرك منظره فيها شيئا من الشهوة ، بل لو عرض عليها شىء من هذا فانما يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء أوقات فى خلوات كثيرة يحدث فيها ما قد يشعر كل واحد منهما بانجذاب

الى الآخر ، وهذا هو ما منعته الشريعة وبينا امتناعه فيما سبق ٠ أما الثانية فمجرد وقوع نظرها على رجل يحدث في نفسها خاطر اختلاف الصنف من غير شعور ولا تعمد ولا نية سيئة ، وانما هو أثر منظر الرجل الأجنبي لأنه قد وقر في نفسها ألا تراه ولا يراها ، فمجرد النظر اليه كاف في اثارة هذا الخاطر ٠

وقد شاهدت مرارا كما شاهد غيري هذا الأثر عينه في الرجال ، فرأيت أن الرجل الذي لم يتعود الاختلاط بالنساء ان لم يغلبه سلطان التهذيب القوي لا يملك نفسه اذا جلس بينهن ، فلا تشبع عينه من النظر اليهن ومن التأمل في محاسنهن ، وينسى في ذلك كل أدب ولياقة ٠ وربما طلب الوسائل للامستهن بيده أو مماستهن بكتفه ، ويندفع الى أقوال وأعمال تشمئز منها نفوس الحاضرين كأنه يظن — بل هو يظن بالفعل — أنه لا معنى لاجتماع الرجل مع المرأة في مكان واحد الا أن يتمتع كل منهما بشهوته مع الآخر ، بخلاف الرجل الذي اعتاد مخالطة النساء فانه لا يكاد يجد في نفسه أثرا من رؤيتهن أكثر مما يجده عند رؤية الرجال ، ولا يشعر بأدنى اضطراب في حواسه ولا في مشاعره ٠ فمن ألزم لوازم الحجاب أنه يهيئ الذهن في الرجال وفي النساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت ، وهذا يوضح لنا السبب فيما نشاهده كل يوم من أن المرأة اذا رأت رجلا في الطريق ، أودعتها الضرورة لمخاطبته ، تتصنع في حركاتها وصوتها ما تظن أنه يروق في عين الرجل — والرجل كذلك !

وقد شاهدت وشاهد كل انسان ما يخالف ذلك في بلاد أوربا وفي الآستانة وفي القرى المصرية وبين الأعراب في البادية ، حيث يمر الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكتفا لكتف ولا يلتفت أحدهم الى الآخر ٠

ولا ريب أن استلفات الذهن دائما الى اختلاف الصنف من أشد العوامل في اثارة الشهوة ٠

وبدهي أن المرأة التي تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهي مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والأجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة ، فان عفة هذه قهرية • أما عفة الأخرى فهي اختيارية ، والفرق كبير بينهما • ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الأقفال وارتفاع الجدران ؟

أيقبل من مسجون دعواه أنه رجل طاهر ، لأنه لم يرتكب جريمة وهو في الحبس ؟ فاذا كانت نساؤنا محبوسات محجوبات فكيف يمكنهن أن يتمتعن بفضيلة العفة ؟ وما معنى أن يقال انهن عفيفات ؟ ان العفة هي خلق للنفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها • ولعل التكليف الالهي انما يتعلق بما يقع تحت الاختبار لا بما يستكره عليه من الأعمال • فالعفة التي تكلف بها النساء يجب أن تكون من كسبهن ، ومما يقع تحت اختيارهن ، لا أن يكن مستكرهات عليها ، والا فلا ثواب لهن في مجرد الكف عن المنكر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد » •

والحقيقة أننا نعمل عمل من يعتقد أن النساء عندنا لسن أهلا للعفة ، أليس من الغريب ألا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبدا مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن نتصور أن أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن ؟ أيليق أن نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وأن نسيء الظن بهن الى هذا الحد •

انى أسأل كل انسان خالي الغرض : هل هذه المعاملة يليق أن يعامل بها انسان له من خاصة الانسان ما لنا ؟ فهو مثلنا له روح ووجدان وقلب وعقل وحواس ؟ وهل سوء الظن في المرأة الى هذا الحد يتفق مع اعتبارنا لأنفسنا واعتبار المرأة لنفسها ؟

والعاقل يرى أن الاحتياط الذي يتخذه الرجال لصيانة النساء

عندنا مهما بلغ من الدقة لا يفيد شيئا ان لم يصل الرجل الى امتلاك قلب امرأته ، فان ملكه ملك كل شيء منها ، وان لم يملكه لم يملك منها شيئا ، ذلك لأنه ليس في استطاعة رجل أن يراقب حركات امرأته وسيرها في كل دقيقة تمر من الليل والنهار ·

متى خرج أحدنا من منزله أو سمح لامرأته أن تخرج بسبب من الأسباب فعلام يتكل ان لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها ؟ ثم ماذا يفيد الرجل أن يملك جسم امرأته وحده اذا غاب عنه قلبها ؟ أيستطيع أن يمنعها أن تتصرف فيه وتبذله لأى شخص تريد ؟ فاذا رأت امرأة من الشباك رجلا فأعجبها ، ومالت اليه بقلبها ، وددت أن تواصله لحظة ، أفلا يعد هذا في الحقيقة من الزنا ؟ ألم يتمزق حجاب العفة في هذه اللحظة ؟ وهل بعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمى عفة ؟ نعم ، ان الشرائع لا تعاقب ولا تقيم أحد على زنا العين والقلب ، لأن العقوبات والحدود لا سلطان لها على الخواطر والقلوب ، ولكن في نظر أهل الأدب والتقوى لا عبرة للبعد بين الأجساد اذا تواصلت الأرواح واجتمعت القلوب ·

ومع ذلك ما الذى فعل الحجاب ؟ ألم نسمع بما يجرى في داخل البيوت مما ينافي العفة ويخل بالشرف ؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب والأقفال سريان الفساد الى ما وراء تلك الحجب ؟ كــلا ·

ربما يقول قائل ان ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء أكثر مما كنا نسمعه سابقا · وان الاشاعات عن الفساد أشد انتشارا ، بل ربما كان الفساد في الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلا ، ولا منشأ لذلك الا رقة الحجاب ، فالحالة القديمة على ما فيها كانت أصون للأعراض وأحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التى طرأت على النساء ـ فنجيب على ذلك بأننا لا ننكر أن بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معا وجدت سبيلا في

تخفيف الحجاب الى تعارف بعضها ببعض واتيان ما تميل اليه من المنكر • بل نزيد عليه أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها الى الآن ـ والنفوس على ما هي عليه ـ لعمت البلوى وازداد الفساد انتشارا •

غير أن السبب في ذلك ليس هو تخفيف الحجاب ، بل هو راجع الى أمور كثيرة يجمعها الجهل وسوء التربية •

فسوء التربية هو علة الخفة والطيش • وهو الذى يسهل على امرأة ذات مكانة في بيتها وقومها أن تطيل نظرها الى شباب يمر في طريقها • وسوء التربية هو الذى يخفف عندها تبعة تحريك يدها لاجابة ذلك الشاب فيما يشير به اليها • وسوء التربية هو الذى يدفع بها الى الاتفاق معه على التلاقي والتواصل قبل أن يدور كلام بينه وبينها • وانما أركان عقد ذلك الاتفاق هي نظرات واشارات لا تفصح عن خلق من الأخلاق ، ولا عن ملكة من الملكات ، ولا عن درجة من العرفان ، ولا تدل على حالة نفسية ولا عقلية ولا جسمية يمكن الارتباط بها بين شخصين •

سوء التربية هو الذى يخرق كل حجاب ، ويفتح على المرأة من الفساد كل باب ، وهو الذى يخشى معه أن تسرى العدوى من امرأة الى امرأة ، ومن طبقة الى طبقة ، فقد نرى أن المحجبات مهما بالغن في التحجب لا يستنكفن أن يختلطن بنساء أحط منهن في الدرجة وأبعد عن التصون والعفة • فسيدة المنزل لا ترى بأسا في مخالطة زوجة خادمها ، بل قد تأنس بالحديث معها وسماع ما تنقله اليها من غير مبالاة بما يلائم الحشمة وما لا يلائمها ، ولا تأنف التفتح في القول مع الدلالات وبائعات الأقمشة • بل قد يطوحها الجهل الى الاختلاط بنسوة لا تعرف شيئا عن حالهن ولا من أى مكان أتين ولا بأى خلق من الأخلاق تخلقن • وأشنع من هذا كله وأشد منه فعلا في افساد الأخلاق أن نساء من المومسات اللاتى

يحملن تذكرة رسمية يدعون فى الأفراح ويرقصن تحت أعين الأمهات والبنات والكبار والصغار !

هذا ما يأتى من سوء التربية ، وهو من أشد العوامل فى تمزيق ستار الأدب ، وليست رقة الحجاب بشىء فى جانب هذا كله ٠

طرقت ديارنا حوادث ، وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم كثيرة من الغربيين ، ووجدت علائق بيننا وبينهم علمتنا أنهم أرقى منا وأشد قوة ٠ ومال ذلك بالجمهور الأغلب منا الى تقليدهم فى ظواهر عوائدهم خصوصا ان كان ذلك ارضاء لشهوة أو اطلاقا من قيد ٠ فكان من ذلك أن كثيرا من أعليائنا تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء ، وتسامحوا لهن فى الخروج الى المتنزهات وحضور التياترات ونحو ذلك ، وقلدهن فى ذلك كثير ممن يليهن ، وعرض من هذه الحالة بعض فساد فى الأخلاق ٠

تلك حالة طرأت للأسباب التى تقدمت ، وتبعتها من العواقب ما بيناه ٠ ولكن ليس من مصلحتنا ، ولا من المستطاع لنا ، محو هذه الحالة والرجوع الى تغليظ الحجاب ، بل صار من منمنمات شئوننا أن نحافظ عليها ، ونتقى تلك المضار التى نشأت عنها ٠ وذلك هو ما نستطيعه ٠

أما أنه ليس من مصلحتنا أن نمحو هذه الحالة فلما قدمناه فى مضار الحجاب على الوجه المعروف ٠ وأما أننا لا نستطيع ذلك فلأن أسباب هذه الحالة مما فصلناه سابقا لا تزال موجودة ، وهى تزداد بمرور الزمان بالرغم عنا ، ولأننا قد وجدنا من أنفسنا ميلا الى حسن المعاملة فى معاشرة النساء ، وزين فى أنفسنا الكثير منا حب المجاملة فى مرضاتهن ، ونشأت لهن فى قلوب الرجال منزلة من الاعتبار لم تكن لهن من قبل ، وأحس النساء بذلك من رجالهن ، فعـددن ما وصلن اليه من الحرية والاطلاق حقـا من الحقوق ،

وضروريا من ضرورات المعيشة ، فلا يسهل على الرجل أن يقضى على امرأته بما كان يقضى به من قبل أربعين سنة ٠

والذى يجب علينا هو معالجة المضار التى يظن أنها تنشأ عن تخفيف الحجـاب ٠ ولا توجد طريقة أنجع فى ذلك العـلاج الا التربية التى تكون هى الحجـاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وكل فساد يتوهم فى أية درجـة وصلت اليها من الحـرية والاطـــلاق ٠

سيقول معترض ان التربية والتعليم يصلحان أخلاق المرأة ، وأما الاطلاق فربما زاد فى فسادها ، فنجيب أن الاطلاق الذى نطالب به هو محدود بحظر الخلوة مع أجنبى ، وفى هذا الحظر ما يكفى لاتقاء المفاسد التى لا تتولد الا من الخلوة ٠ أما الاطلاق فى نفسه فلا يمكن أن يكون ضارا أبدا متى كان مصحوبا بتربية صحيحة ، لأن التربية الصحيحة تكون أفرادا أقوياء بأنفسهم ، يعتمدون على أنفسهم ، ويسيرون بأنفسهم ٠ فمن كملت تربيته استقل بنفسه ، واستغنى عن غيره ٠ ومن نقصت تربيته احتاج الى الغير فى كل أموره ٠ فالإستقلال فى النساء كالاستقلال فى الرجال يرفع الأنفس من الدنايا ، ويبعد بها عن الخسائس ، لذلك يجب أن يكون هو الغاية التى نطلبها من تربية النساء ٠

حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان فى تقدم الرجال فى كل زمان ومكان ، وهما مطمح آمال كل أمة تسعى الى سعادتها، وهما من أشرف الوسائل لابلاغها من الكمال ما أعدت له ، فكيف يمكن لعاقل أن يدعى أن لهذين العاملين أثرا آخر سيئا فى أنفس النساء ؟ ومن زعم أن التربية واستقلال الارادة مما يساعد على فساد الأخلاق فى المرأة فقد قصر نظره على بعض الاعتبارات التى لا يخلو عنها أمر من الأمور النافعة فى العالم ، فان لكل نافع ضررا اذا أسىء استعماله ٠

هذا تعليم الرجال لا يخلو من العيوب الكثيرة ، وكثير منهم يستعمل علمه واختياره فيما يضر بنفسه أو بغيره · فهل ذلك يحمل أحدا من الناس على أن يقول ان من الصواب ألا يعلم الرجال شيئا خوف استعمال ما يتعلمون فيما يسوؤهم أو يسوء غيرهم ، وان من الواجب أن يتركوا فى الجهل تحت حجاب الغفلة ؟ لا أظن أن عاقلا يخطر هذا الخاطر بباله · فاذا كان اجماعنا قد انعقد على أن لا خير للرجال في الجهل والاستعباد ، وأن لا سبيل لهم الى بلوغ درجات الفضل الا بالعلم وحرية الفكر ، فما لنا نختلف فى هذه القضية نفسها اذا عرض ذكر المـرأة ؟ وأى فرق بين الصنفين فى الفطرة والخلقة ؟

والحق انا غالينا فى اعتبار صفة العفة فى النساء وفى الحرص عليها وفى ابتداع الوسائل لحفظ ما ظهر منها وتفخيم صورتها حتى جعلنا كل شىء فداءها ، وطلبنا أن يتضاءل ويضمحل كل خلق وكل ملكة دونها · نعم ، العفة أجمل شىء فى المرأة وأبهى حلية تتحلى بها ، ولكن العفة لا تغنى شيئا عن بقية الصفات والملكات التى يجب أن تتحلى نفس المرأة بها من كمال العقل وحسن التدبير والخبرة بتربية الأولاد وحفظ نظام المعيشة فى البيت والقيام على كل ما يعهد اليها من الشئون الخاصة بها · بل نقول ان لهذه الصفات دخلا كبيرا فى كمال العفـة ، وفقدان المرأة خصلة من هـذه الخصال لا ينقص فى ضرره وفى الحط من شأنها عن فقدان العفة نفسها ·

اتفقت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية على أن عقد الزواج وحده هو الذى يحلل الاجتماع بين الرجل والمرأة ، وان اجتماعهما بدون ذلك العقد المقدس ممنوع وممقوت · ذلك أمر اقتضاه نظام العشيرة وكمال النفس الانسانية ، فالعمل على ما يخالفه قبيح مذموم بلا ريب · غير أن تلك الشرائع الالهيـة والقوانين الوضـعية قد حظرت أعمالا أخرى ، وأنزلتها من الشناعة منزلة لا تنحط عنهـا منزلة الخنا ، ووضعت عليها عقوبات أشد من العقوبة عليه ، لأنها

اعتبرت أن لتلك الأعمال من الضرر بالنظام ما هو أشد من ضرر الزنا · ولنضرب مثلا بجريمة القتل ، فانها أعظم من جريمة الزنا فى نظر الدين والقانون · فلم لم تتخذ للوقاية منها من الوسائل الضارة ما اتخذناه للوقاية من الزنا ؟

انا معرضون فى كل ساعة تمر من حياتنا الى مصائب لا تحصى ، وهذا لم يمنعنا من أن نتحرك ونسعى ونقتحم الأخطار فى الأسفار لنحصل من رزق الله ما نحتاج اليه · انا نشعر بأنواع الجرائم ترتكب من حولنا فالقتل والنهب والنصب والتزوير والقذف وغيرها من الجرائم تزعج الساكن وتقلق المطمئن ، ومع ذلك نحتمل مصائبها ، ونسلم لحكم القدر فيها ، ونجتهد فى تطهير المجتمع منها بالوسائل المشروعة من التربية أو ايقاع العقوبة على مرتكب الجريمة · فلم لا يكون ارتكاب الفحش من المرأة جريمة من هذه الجرائم التى لا يخلو منها مجتمع انسانى ؟ ولم نتخيل أنها أشنع وأفظع من سواها حتى اتخذنا لمنعها ما لم نتخذه لمنع غيرها ؟

وعلى أى حال فليس من الجائز أن نأتى ما فيه ضرر محقق لنتقي به ضررا وهميا ، فوقوع الفحش من المرأة أمر محتمل الوقوع قد يكون وربما لا يكون ، أما حجابها ومنعها من التمتع بقواها الغريزية فهو ضرر محقق لاحق بها حتما · ويا ليته اقتصر عليها ، ولكنه يتعداها الى كل ما يقع تحت رعايتها ·

يتوهم أحدنا أن امرأته ربما تميل الى غيره ان رفع الحجاب عنها ، فلذلك يزج بها وراء الأبواب ، ويغلق عليها الأقفال ، ويظن بذلك أنه قد استراح من الوساوس ، وهو لا يدرى ما ربما يأتيه من ··· حيث لا يدرى ، فلم يفد حرصه شيئا فى الحقيقة · ومع هذا فهو بعمله قد قتل نفسا حية ، وأفسد نفوسا كثيرة ممن تتولاهم زوجته فى بيته فى سبيل ما يظنه راحة لنفسه ·

توهم كثير ممن سبقنا مثل ما توهمنا ، وحجبوا نساءهم كما نحجب نساءنا ، بل فاقونا في التفنن واتخاذ الطرق لاطمئنان أنفسهم من ناحية زوجاتهم • واننى أذكر الآن أغرب طريقة كانت مستعملة عند أعيان أوربا فى القرون الوسطى ، وهى ما كان يسمى عندهم بنطاق العفة ، وهو نطاق من حديد يتصل به حفاظ ، ولذلك النطاق قفل يكون مفتاحه في جيب الرجل دائما • ولكن هـذا لم يمنع النساء من أن يمنحن عشاقهن مفتاحا مصطنعا ! ثم ما لبث هؤلاء الأمم أن أدركوا خطأهم ، وعرفوا أن ضرر تلك الأوهام أكثر من نفعها • ولما أخذت المعارف تنتشر بينهم شرعوا فى قياس أعمالهم المعاشية بمقياس العقل السليم والعلم الصحيح الخالص من شائبة الوهم ، وأدركوا أن سعادتهم لا تتم بما ينالون من ثمار ذلك الا اذا شـاركهم نساؤهم فى مسـاعيهم وعاونهم فى لم شعثهم وتكميل نقصهم ، فأعدوهم بالتربية والعلم الى ما أملوا منهن ، فافتككن من أسرهن ، وتمتعن بحريتهن ، وسرن مع رجالهن يعاونهم في الحياة ، ويمددنهم بالرأى فى كل أمر • ولست مبالغا ان قلت ان ما أقامه التمدن الحديث من البناء الشامخ وما وضعه من الأصول الثابتة انما شيد على حجر أساسى واحد هو المرأة •

لم يكن ما استفاده الغربيون من تربية نسائهم والتساهل لهن فى مخالطتهم مقصورا على المزايا التى أشرنا اليها ، بل كان لهم مع ذلك فوائد جمة فى تدبير المعيشة وتيسير طرق الاقتصاد •

تدخل بيت الغربى من أهل الطبقة الوسطى فتجده أتم نظاما وأكمل ترتيبا وأجمل أثاثا من بيت الشرقى من أهل طبقته ، ومع ذلك تجد نفقة الغربى أقل من نفقة الشرقى بكثير •

انظر الى الواحد منا تجد مسكنه لابد أن يكون الى قسمين : قسم للرجال وآخر للنساء • فان أراد أن يبنى بيتا فعليه أن يهيىء ما يكفى لبناء بيتين فى الحقيقة ، واذا استأجر بيتا فهو انما يستأجر فى الواقـع بيتين ، ويتبـع ذلك ما يلزم لكل منهما من الأثاث

والفراش • ولابد له من فريقين من الخدم : فريق يخدم الرجال في القسم المختص به ، والآخر يختص بخدمة النساء داخل البيت • ثم لابد له من عربة للنساء وعربة للرجال ، لأنه ليس من الجائز في عرفنا أن يركب الرجل مع زوجته أو مع والدته في عربة واحدة • وهو مضطر لأن يزيد في النفقة للطعام وما يتبعه ، لأنه اذا أتى ضيف واحد ـ رجلا كان أو امرأة ـ وجب تحضير مائدتين بدل واحدة كانت تكفي • وهكذا ترى نفقات ضائعة ، وثمرات كسب مستهلكة ، ولا سبب لها الا تشديد الحجاب على النساء •

هل يظن المصريون أن رجال أوربا ، مع أنهم بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغا مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على ما نشاهده بأعيننا ، وأن تلك النفوس التي تخاطر كل يوم بحياتها في طلب العلم والمعالي وتفضل الشرف على لذة الحياة ـ هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس التي نعجب بآثارها يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها ؟ هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيرا فيه ؟ ـ كلا • وانما الافراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقول السذج ، وتركن اليها نفوسهم ، ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق •

متى تهذب العقل ورق الشعور أدرك الرجل أن المرأة انسان من نوعه لها ما له وعليها ما عليه ، وأن لا حق لأحدهما على الآخر بعد توفية ما فرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه الا ما يعطيه كل من نفسه بمحض ارادته وحسن اختياره •

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل عرف أن حجاب المرأة اعدام لشخصها ، فلا تسمح له ذمته بعد ذلك أن يرتكب هذه الجريمة توسلا الى ما يظنه راحة بال واطمئنان قلب •

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الزوج وجد من نفسه أن لا سبيل الى اطمئنان قلبه فى عشرة امرأة جاهلة ، مهما كان الحائل بينها وبين الرجال ·

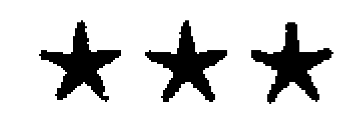
متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل أدرك أن ألذ شيء تشتاق اليه نفسه هو حب يصل بينه وبين انسان مثله بحسن اختيار وسلامة ذوق لا بمجرد نزعات الهوى ونزوات الشهوة ، فيسعى جهده فيما يقويه ويشد عراه ويبذل ما وفى وسعه للمحافظة عليه ·

متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل والمرأة لا تقتنع نفوسهما بالاختلاط الجسدانى وحده ، بل يصير أعظم همها طلب الائتلاف العقلى والوحدة الروحية ·

ان طبيعة العصر الذى نحن فيه منافرة للاستبداد معادية للاستعباد ميالة الى سوق القوى الانسانية فى طريق واحدة وغاية واحدة · فهذا الطائف الرحمانى الذى طاف على نفوس البشر فنبه منها ما كان غافلا لابد أن ينال منه النساء نصيبهن · فمن الواجب علينا أن نمد اليهن يد المساعدة ونعمل بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى الضعيفين : المرأة واليتيم » · ولا شيء أدخل فى باب التقوى من تهذيب العقل وتكميل النفس واعدادها بالتعليم والتربية الى مدافعة الرذائل ومقاومة الشهوات ، ولا من حسن المعاملة واللطف فى المعاشرة · فعلينا أن نجعل الصلة بيننا وبينهن صلة محبة ورحمة لا صلة اكراه وقسوة · هذا ما تفرضه علينا الانسانية ، وتطالبنا به الشريعة ، وهو مع ذلك فريضة وطنية يجب علينا أداؤها حتى تكون جميع أعضاء المجتمع عندنا حية عاملة قائمة بوظائفها ·

وقبل أن أختم الكلام فى هذا الباب أرى من الواجب على أن أنبه القارىء الى أنى لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء

على ما هن عليه اليوم . فان هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لا يأتى معها الوصول الى الغرض المطلوب ، كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى ، وانما الذى أميل اليه هو اعداد نفوس البنات فى زمن الصبا الى هذا التغيير ، فيعودون بالتدريج الى الاستقلال . ويودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة فى النفس لا ثوب يختفى دونه الجسم . ثم يعودن معاملة الرجال من أقارب وأجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية وأصول الأدب تحت ملاحظة أوليائهن . عند ذلك يسهل عليهن الاستمرار فى معاملة الرجال بدون أدنى خطر يترتب على ذلك الا فى أحوال مستثناة لا تخلو منها محجبة ولا بادية !



المـرأة والأمـة

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على أن يستعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها يعلم أن الأمة المصرية دخلت اليوم في دور مهم ، بل فى أهم دور من تاريخها ٠

انى لا أجد فى ماضيها عصرا انتشرت فيه المعارف وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية وانبث الأمن والنظام فى أنحاء البلاد ، وتهيأت الأسباب للتقدم مثل العصر الذى نعيش فيه الآن ٠ ولكنها من جهة أخرى لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمان ، فان تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه الى جميع الأنحاء المسكونة ، فلا يكاد يوجد منها شبر الا وطئه بقدمه ٠ وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة ، ولم يدع وسيلة من الوسائل الا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة ، وان أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين ، فانه انما يسعى الى السعادة فى هذه الحياة الدنيا يطلبها أنى وجدها وبأى طريقة يرى النجاح فيها ٠ وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله ، فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما ٠ فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك أو يستعمر ، لأنه يجد ذلك متوافرا له فى أعماله العقلية واختراعاته العلمية ، وانما الذى يحمل الانكليزى على أن يسكن الهند ، والفرنسى الجزائر ، والروسى الصين ، والألمانى زنجبار ،

هو حب المنفعة والرغبة فى تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !

فان صادفوا أمة متوحشة ـ مهما كان بأسها ـ أبادوا أهلها وأهلكوهم أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل فى أمريكا وأستراليا ، وكما هو حاصل الآن فى أفريقية حيث لا يرى أثر لأهالى البقاع التى احتلها الأوربى ، لأنهم خرجوا منها طوعا أو كرها • وان صادفوا أمة كأمتنا فيها نوع من المدنية من قبل ، ولها ماض ودين وشرائع وأخلاق وعوائد وشيء من النظامات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف • لكن لا يمضى زمن طويل حتى ترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على أهم أسباب الثروة ، لأنهم أكثر مالا وعقلا وعرفانا وقوة ، فيتقدمون كل يوم ، وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها • هذا ما سماه داروين قانون التزاحم فى الحياة : فطرة الله التى فطر عليها جميع الأنواع وأودعها اياها لتعدها الى الرقى فى درجات الكمال • فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود الى خفاء العدم ، وما قوى عند التغالب أظفره الله بالنصر المبين ، فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهنا بظفره على أنه أفضل بنى نوعه وأكرمهم ، فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره •

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها ، وهى أن تستعد الأمة لهذا القتال وتأخذ له أهبتها وتستجمع من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت ، خصوصا تلك القوة المعنوية ، وهى قوة العقل والعلم التى هى أساس كل قوة سواها •

فاذا تعلمت الأمة كما يتعلم مزاحموها ، وسلكت فى التربية مسالكهم ، وأخذت فى الأعمال مآخذهم ، وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا به ، أمكنها أن تعيش بجانبهم ، بل تيسر لها أن تسابقهم

فتسبقهم ، فتستأثر بالخير دونهم ، لأن البلاد بلادها ، وأرضها أبر بهـا منها بالغريب عنها ، وأبناءها أقدر على المعيشة فيها ، وهم السواد الأعظم ، فكيف اذا ظفروا من أنفسهم بتلك الحال الشريفة لا يفلحون ·

وهذه الطريق ـ طريق النجاة ـ كما قدمت مفتوحا أمامنا ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا ما يكون من أنفسنا ·

فان كان للمصريين هم وصـدق عـزيمة فى طلب سعادتهم والمحافظة على بقائهم والسعى الى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة ، فعليهم أن يسلكوا تلك الطريق ، ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة ، وينزعوا من أنفسهم كل خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم ، وليعتمدوا على أنفسهم فى اصلاح أنفسهم ، ولا يضيعوا أوقاتهم فى أمانى باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم ، فان حكومتهم لا تستطيع من العمل لهم الا قليلا · أما هم فانهم يستطيعون أن يأتوا فى اصلاح شئونهم بالجم الكثير · ماذا يفيدهم أن يقولوا كل يوم ان الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا أن نفعـل ما يجب علينا لأنفسنا ؟

نحن اليـوم متمتعون بعـدل وحـرية لا أظن أن مصر رأت ما يماثلهما فى أى زمن من أزمانها ، وهما الأمران اللذان تحتاج اليهما الأمة أشد الاحتياج ، ولا يتيسر بدونهما نجاح فى عمل من الأعمال العظيمة التى يقوم بها اصلاحها · فما علينا الا أن ننتهز فرصة ما وصلنا اليه ، ونحرث أرضنا ونسقى غراسها ، وننتظر ما تأتى به من الثمرات ، فاذا نضجت اقتطفناها · وكما أن الزارع يجب عليه قبل أن يلقى البذور فى الأرض أن يهتم بمعرفة طبيعتها وما تحتاج اليه من الأعمال لتحضيرها وتهيئتها ، حتى لا يضيع ماله وتعبه ، كذلك يجب علينـا أن نبحث فى أسـباب تأخرنا ، فاذا

عرفناها عمدنا الى ازالتها وصنا أنفسنا من التخبط على غير هدى ، وأرحنا أنفسنا من التجارب العقيمة ٠

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه نثبت هنا أمرا لاحظه كل من له المام بأحوال الشرق : وهو أن تأخر المسلمين عام فيه أين كانوا ، فالسبب يجب أن يكون عاما أيضا ٠

أما اختلاف الشعوب والأقاليم فليس له تأثير كبير فى انحطاط المسلمين ، اذ لو كان له أثر لوجد اختلاف بين التركى والمصرى والهندى والفارسي والبشتاقي والصينى من حيث العمران والمدنية ، ولكننا لا نرى اختلافا بينهم من هذه الجهة ، وانما الاختلاف محصور فى بعض الصفات النفسانية وبعض العوائد ٠ ذلك هو كل ما فعله اختلاف الشعوب والأقاليم ٠ فالتركى مثلا نظيف صادق شجاع ، والمصرى على ضد ذلك ، الا أنك تراهما برغم هذا الاختلاف متفقين فى الجهل والكسل والانحطاط ٠ اذن لابد أن يكون بينهما أمر جامع وعلة مشتركة هى السبب الذى أوقعهما معا فى حالة واحدة ٠

ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعا الا الدين ذهب جمهور الأوربيين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين ، الى أن الدين هو السبب الوحيد فى انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم ، حتى الذين يشاركونهم فى الاقليم ويساكنونهم فى البلد الواحد ٠ ولم يقصد أحد منهم ـ خصوصا أفاضل المسلمين المشتغلين بأحوال الأمم الاسلامية ـ أن يتهم الدين الاسلامى الحقيقى بأنه السبب فى انحطاط المسلمين ، فان كل من عرف هذا الدين من الأجانب ، فضلا عن أبنائه المنتسبين اليه ، يجل قدره ويحترمه ويعترف أن آثاره الماضية فى الأمم التى انتشر بينهابرهنت على أنه وسيلة من أفضل الوسائل وعامل من أقوى العوامل التى تسوق الانسان فى طرق الترقى والتقدم الى غايات السعادة ٠ ولكنهم يرون أن ما يزعمه المسلمون اليوم دينا ، وتسميه عاماتهم بل أغلب علمائهم

بدين الاسلام ، قد اشتمل على أمور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب موهومة لا عـلاقة لها بالدين الحقيقى الطـاهر ، وانما هى بدع ومحـدثات ألصقت به : فهـذا الخليط الذى سماه الناس دينـا واعتبروه اسلاما هو المانع من الترقى ٠

وليس فى امكان أحد أن ينكر أن الدين الاسلامى قد تحول اليوم عن أصوله الأولى ، وأن العلماء والفقهاء ـ الا قليلا ممن أنار الله قلوبهم ـ قد لعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخرية وهزأوا ، وحقت عليهم كلمة الكتاب :

« اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا »

ولكنى أعتقد أن هذا الانحطاط الذى طرأ على الدين ليس سببا لما عليه المسلمون الآن ، وانما هو نتيجـة لأمر : هل هو الجهل الفاشى فى المسلمين عامة رجالا ونساء ٠

كان النبى صلى الله عليه وسـلم وخلفـاؤه وأصحابه كلهم يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا فى آن واحد ٠ وصرحت السنة كما أجمعت عليه الأئمة بأن لا قوام للدين الا بسلطة تحفظه ٠ فلم يمض الا قرن واحد من عهد ظهور الاسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على أهم أقسام العالم ٠ ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات العجيبة اكراه الناس على الأخذ بهذا الدين ٠ وانما كانوا يفتحون البلاد دفاعا عن الحوز وتوسيعا لنطـاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة ، وهو المقصد الذى يعمل له الأوربيون فى بلاد الشرق الآن ٠

ثم لم يمض على ظهور الاسلام جيلان حتى أضاء الكون بنور العلوم التى نشرها المسلمون فى كل أرض احتلوها وبلد أقاموا به ، فلم يتركوا فرعا من العلوم ولا فنا من الفنون الا تعلموه وألفوا فيه وزادوا عليه ، حتى العرب ـ تلك الأمة الأمية التى ربما صح

فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدنية أبدا ـ اندفعت بقوة ذلك التيار وعامل تلك النهضة الى منافسة مواطنيهم فى خدمة العلم · وكانت هذه الحركة عامة فى كل ما يجول فيه الفكر ويمتد اليه النظر وتتناوله مدارك البشر : هذا يشتغل بعلوم الكلام ، وآخر بالعلوم الطبيعية ، وثالث بالفلك والحساب ، ورابع بالتاريخ والجغرافيا ، وخامس بالفلسفة والأخلاق · ولم يهملوا الصناعة والتجارة فبنوا وشيدوا ، وامتلأت سفنهم بالبضائع تجرى فى البحار حول الأرض · واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الأزمان الى أن رزىء المسلمون بوقائع التتار فى الشرق وانقراض الخلافة منه · وزالت دولة العرب من الأندلس ، وانتقلت العلوم الاسلامية الى أوربا ، فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الأولى ·

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق بأجمعه واقتصر علماء الاسلام على النظر فى شىء من علوم الكلام وبعض شىء من قواعد اللغة العربية ، وانصرفوا عن كل شىء سواها ·

ولما ساد الجهل على عقولهم ، وتراكمت ظلماته فى أذهانهم ، لم يعد فى استطاعتهم أن يفهموا حقيقة الدين ، وشعروا أن ضعفهم لا يسمح لهم بأن يصعدوا اليه بعقولهم ، فأنزلوه من مكانه الرفيع ، ووضعوه مع جهلهم فى مستوى واحد · ثم أخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبى الأحمق ، والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ويعجب بمعارفه ويؤذى نفسه والناس معه ·

انظر الى الجاهل تجده دائما يختار من فكرين أقلهما صوابا ، ومن طريقين أصعبهما ، ومن عملين أضرهما ، ذلك لأن الحق سواء كان فضيلة أو مصلحة يلتبس بالباطل · ويخفى على الناظر ، فلا يراه بعيد النظر نافذ البصيرة فى مصائر الأمور وعواقبها · ثم

هو يحتاج فى الوصول اليه الى عناء يفر منه الجاهل الكسول وفيه حرمان من لذة حالية فى سبيل منفعة مستقبلة ٠

ومن رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشئون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعنيهم ، وصار منتهى علمهم أن يعرفوا فى اعراب البسملة ما يزيد من غير مبالغة على ألف وجه ، وان سألتهم عن شيء من الأشياء المتداولة فى أيديهم صنع أو عن حالة الأمة التى هم منها أو أمة أخرى تجاورهم أو الأمة التى احتلت بلادهم أين موقعها الجغرافى ، وما منزلتها من القوة والضعف ، بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من أعضائه أو مكانه من بدنه ـ هزوا أكتافهم ازدراء بالسائل والمسألة احتقارا لهما ٠ وان تكلمت معهم فى نظام حكومتهم الداخلى وقوانينها وحالتها السياسية والاقتصادية وجدتهم لا يدرون منها شيئا ٠ وسواء عاشوا فى العز أو فى الذل فهم على كل حال عائشون ، وبما ينحطون اليه راضون، ويرون أن ليس للانسان أن يعمل لمصلحة نفسه وأن يختار لها أمرا ، ويزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم الى ما يجرى به القضاء ٠ مع أنك تراهم أشد الناس احتيالا فى طلب الرزق من غير وجهه ، وأحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ونيل ما يتوهمونه شرفا ورفعة ، ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم ٠ فهم فى الحقيقة يريدون التخلص من مشقة العمل ، وانما يحتجون بالقدر تضليلا للعامة واقناعا للسذج بأنهم فى تقصيرهم فى أداء ما فرضته عليهم الشريعة مقهورون بقوة القضاء ٠

ظن هؤلاء المساكين أنهم متى عرفوا كيف تستقيم العبارات وكيف تعذب الألفاظ بالاعراب والصرف عرفوا مافى الدين والدنيا : والبعد بينهم وبين الدين الحقيقى عظيم ٠

قال الأستاذ الشيخ محمد عبده فى بيان ما جاء به الاسلام

كلاما نأخذ منه ما يناسب المقام هنا لأنه أحسن ما كتب فى هذا الزمان لتنبيه أفكار المسلمين :

« طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت (**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره** • **ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**) • و (**أن ليس للانسان الا ما سعى**) وأباح لكل واحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا لنفسه ، أو بمن يدخل فى ولايته ، أو ما تعدى ضرره الى غيره • وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة • فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها الا حقا محترما تصطدم به •

« أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس • واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم • وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته • وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هيمنة من سدنة هياكل الوهم : نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة •

« علا صوت الاسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام : أعلام الكون ودلائل الحوادث • وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون •

« صرح فى وصف اهل الحق بأنهم « **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**) • فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته

ونفعه • ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظـار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنـون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضـون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون •

« صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبـه على أن السـبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان • وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان • بل اللاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه • وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم

(قـل سـيروا فى الأرض فانظـروا كيف كان عاقبة المكذبين) ••

وان أبواب فضـل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب •

« عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسـلافهم وقولهم (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) • (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) » (١)•

ومما يستحق أن نفرح له هو أن نفرا من علماء عصرنا في مصر وفي غيرها من بلاد الاسلام شرقا وغربا يرون ما نرى ، ويقولون ما نقول ، ويعترفون بأن العلوم التى تقرأ الآن فى الأزهر وفى غيره

(١) رسالة التوحيد ، صفحة ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢ •

لا تفيــد ان لم تؤسس على الحقــائق العلمية التى تهيىء العقول لقبولها والانتفاع بها ٠

وفى الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لا يمكن الانتفاع بها اذا لم يسبقها الالمام بالمعارف والمبادىء العلمية ٠ أليس التوحيد هو خاتمة العلوم كلها وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم شريعة كل نفس فى ارتباطها بخالقها وفى معاملتها مع بقية البشر ، وكلاهما يحتــاج الى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الأفكار ويرتقى به العقل ؟ أليس فى الحقيقة واحدا يشبه شجرة ذات فروع وأفنان تتصــل بأصــل واحد وتتغذى من جذر واحد وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة هى معرفة حقيقة كل شىء فى الوجود ؟

وما علينا الا أن نصغى لمقال هؤلاء العلماء الأفاضل الذين هم أدرى منا بحاجات الدين ، ولا يخفى عليهم شىء من حاجات الدنيا ، وأن نعضدهم فى مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومته الطويلة ، ويذلل العقبات ، ويتغلب على المصاعب التى أقامها أهله فى طريقه ٠

ولا حاجة بنا الى التطويل فى شرح أمر صار معلوما عنــد الكل ، وهو انحطــاط الدين اليوم فى جميع مظــاهره حتى فى العبادات ٠ وانما أردنا أن نبين أن انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول ، وأن العلة الأولى التى هى مصدر غيرها من العلل التى حالت بيننا وبين الترقى هى اهمال التربية فى الرجال وفى النساء معا ٠

فان استمر ذلك السبب لم يصلح للأمة حال بل يستمر كل أمر على حاله ، والدين أيضا ٠ وان زال ذلك السبب صلح حال الأمة فى جميع مظاهر حياتها العقلية والأدبية ، وصلح معها الدين أيضــا ٠

أما أن تربية الرجال تصلح شأن الأمة وتقوم اعوجاجها فهذا مما صار معروفا عند كل واحد ومسلما به عند الجميع ، وأما وجوب تربية المرأة أيضا فلا يزال محتاجا الى البيان :

المرأة لا تكون خلقـــا كاملا الا اذا تمت تربيتهـا الجسمية والعقلية • أما تربيتها الجسمية فلأنها لازمة فى استكمال صحتها وحفظ جمالها ، فيجب أن يربى الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة ، لأن الجسم الضعيف لا يسكنه الا عقل ضعيف ، ولأن ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية انما هو ناشىء عن عدم انتظام وظائف أعضاء الجسم •

فسلامة العقل فى جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم • وهذا هو السر فى تقدم الجنس الانكليزى السكسونى على غيره •

ويرى القراء فى الكتاب الذى ترجمه صديقى أحمد فتحى (بك) زغلول من اللغة الفرنسية الى العربية(١) كيف أن نشاطهم وجراءتهم واقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التى تعترف كل الأمم بامتيازهم فيها عن سواهم هى نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل ، والحرية والاستقلال فى الأعمال مما له دخل كبير فى تربية أطفالهم ذكورا واناثا • ولهذا ابتدأ الفرنسيون وغيرهم فى تقليدهم، لأنهم أدركوا أن تربية العقل التى اعتنوا بها لا تثمر ثمرتها الا اذا صحبتها تربية الجسم وأن موازنة العقل لا تتم الا بموازنة وظائف الجسم • واذا تذكر القارىء ما سبق بيانه من أن الولد يرث من أبويه خصوصا من أمه الحالة الجسمية والعقلية التى تكون عليها مدة حمله ، يعلم مقدار ما تستفيده المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة •

---

(١) سر تقدم الانكليز السكسونيين •

وأما تربيتها العقلية فلأنها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها كما هى حالتها الآن عندنا نعم ، انهـا تلد ويحفظ بهـا النـــوع الانساني ، لكنها فى ذلك انما تؤدى وظيفة كل أنثى من سائر أنواع الحيوانات ، وهى تمتاز فى عملها هذا عن نحو هرة ولود ٠

وفى الحق أننا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة وخصصناها بالنتاج ولم نطلب منهـا شيئا غير ذلك ٠ وسببه أننا توهمنـا أن المرأة لا تصلح لعمل آخر ، وأن الرجال غير محتاجين الى النساء فى القيام بشئون الحياة الخاصة والعامة ، وغاب عنا أن الرجل انما يكون فى كبره كما هيأته والدته فى صغره ٠

فهذا الارتباط التام بين الرجل وأمه هو الأمر المهم الذى أريد أن يفهمه الرجال ٠ وهو ثمرة كل ما وضعته فى هذا الكتاب ٠

انى أكرر ما قلته من أنه يستحل تحصيل رجال ناجحين ان لم يكن لهم أمهات قادرات على أن يهيئنهم للنجاح ، فتلك هى الوظيفة السامية التى عهد التمدن بها الى المرأة فى عصرنا هذا ، وهى تقوم بأعبائها الثقيلة فى كل البلاد المتمدنة حيث نراها تلد الأطفال ثم تصوغهم رجالا ٠

وبدهى أن العمل الأول ، وهو الولادة ، هو عمل بسيط مادى تشترك فيه المرأة مع الحيوانات فلا يحتاج الا الى بنية سليمة ٠ أما العمل الثانى وهو التربية فهو عمل عقلى امتاز به النوع الثانى ، وهو محتاج فى تأديته الى تربية واسـعة واختبـار عظيم ومعارف مختلفة ٠

والأمر الذى يلزم أن تلتفت اليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام فى العائلات التى يتكون منها جسم الأمة ، لأن العائلة هى أساس الأمة ٠ ولما كانت المرأة هى أساس العائلة كان تقدمها وتأخرها فى المرتبة العقلية أول مؤثر فى تقدم الأمة وتأخرها ٠

المرأة ميزان العائلة ، فان كانت منحطة احتقرها زوجها وأهلها وأولادها وعاشوا جميعا منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يعرفون نظاما ولا ترتيبا فى معيشتهم فتفسد آدابهم وعوائدهم ، وان كانت على جانب من العقل والأدب هذبت جميع العائلة ، واحترمها أفرادها، واحترموا أنفسهم ، وعاش الجميع فى نظام تام تحت لواء محبتها متضامنين أقوياء باتحادهم · وهذه الصفات التى تشاهد فى الأمة ، اذ كل منا يسلك فى أمته مسلكه فى عائلته · ومن المحال أن يكون للانســان من الصفات والأخــلاق فى أمته ما ليس له نموذج فى منزله ، وأن يعامل مواطنيه بأخــلاق غــير التى يعامل بها أفراد عائلته ، وان كان حسن الأخلاق فى عائلته كان كذلك فى أمته ، وان كان سيىء الأخلاق فى عائلته ساءت أخلاقه فى أمته أيضا · ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة فى تقدم الأمم وتأخرها ·

وبالجملة فان ارتقاء الأمم يحتاج الى عوامل مختلفة متنوعة من أهمها ارتقاء المرأة ، وانحطاط الأمم ينشــأ من عوامل مختلفة متنوعة أيضا من أهمها انحطاط المرأة ·

فهذا الانحطاط فى مرتبة المرأة عندنا هو أهم مانع يقف فى سبيلنا ليصدنا عن التقدم الى ما فيه صلاحنا · وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التى ينتظــر بها مرور الأزمان ويجــوز الابطاء فى اعداد الوسائل لها كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطنطنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات ، وانما هى من الحاجيات ، بل من الضروريات التى يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات · وهى الواجب الخطير الذى ان قمنا به سهل علينا كل اصلاح سواه ، وان أهملناه أفسد علينا كل اصلاح سواه ·

دلت التربية الجديدة التى منحها نساء أوربا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة البسيطة التى وقفها أولئك الأسلاف

الغافلون على التناسل ، فبمجرد ما حل العقل محل القوة وحلت الحرية محل الاستبداد رأى العالم أن فى المرأة أسرارا لم تعرفها الجاهلية الأولى ، وأنها تصلح لوظائف سامية مثل التى يصلح لها الرجال ، وأن انحطاطها كان عارضا لا طبيعيا • فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ، ومرنت قواها على العمل صعدت من العقل الى درجة ، وذهبت فى رقة الشعور الى غاية لم تكن تخطر فى خيال أحد من أهل تلك العصور الحالية • وهى الى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها •

كل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك فى أنهن يأتين من الأعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه : لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون الا والمرأة عاملة فيه مع الرجل كتفا بكتف • ولا يوجد عمل خيرى الا وهى أول العاملين فيه • ولا تقع حادثة سياسية الا وللمرأة نصيب فيها • وليس بين الصنفين فرق الا أن المرأة لم تنل الحقوق السياسية ، فاذا منحتها ـ كما هو المنتظر فى بلاد أوربا ـ تمت المساواة بينهما • على أنها قد نالت منها الآن شيئا كبيرا حيث خول لها حق الانتخاب فى أمريكا وفى انكلترا فى المجالس البلدية وفى فرنسا فى المحاكم التجارية وفى بعض جمهوريات الولايات المتحدة تجلس المرأة فى المجالس الشورية •

ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم أوربا وأمريكا من جمعية للنساء همها المطالبة بحقوق المرأة والسعى فى سبيل اكتسابها • وكل سنة تمر تترك فى تاريخ أعمالهن أثرا شريفا وتنتهى بفوز جـــديد •

ولا يشك أحد من الواقفين على هذه الحركة التى أظهر فيها هذا الصنف الضعيف قوة عجيبة أن المرأة لابد أن تصل فى زمن

قريب الى مستوى تبلغ فيه منتهى ما تطلب من مساواتها للرجال فى جميع الحقوق ، ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك الا الله ، وهل تقف النساء عند هذا الحد أو يسبقن الرجال فى ميدان التقدم والترقى ٠

ومن البدهى أن هذه القوى التى تصرفها النساء فى التجارة والصناعة والفنون والعلوم ان كانت كل واحدة منهـا على حدتها لا يظهر أثرها للناظر فى أحوال الأمة ، فان لجميعها مجموعا واحدا يظهر أثره فى أحوالها تمام الظهور ، وهى رأس مال عظيم نحن مقصرون فى العناية والانتفاع به ٠

وعندى أن من أعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من أعمال النساء الخيرية ، لأن الميـل الى الخـير من غرائز المرأة الفطرية ، ويقودها اليه رقة الاحساس وحنو القلب ، ولها من الصبر على خدمة الفقراء والمرضى ما لا يتحمله أعظم الرجال جلدا ، ولها اعتناء جميل واندفاع قلبى ، وهذه الصفات توجد عند النساء فى الغالب ٠ غير أن المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشدا يهديها الى سبيل الخير ، فتصرف ما أودعه قلبها من كنوز الرحمة فى أصغر الأمور وأحقرها ٠

هذا هو عمل المرأة فى الأمم المتمدنة ، وقد وجـد فى مبدأ الاسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر فى مصالح المسلمين العامة ٠ فجميع المسلمين يعلمون أن طائفة عظيمـة من الأحاديث النبوية على اختـلاف مواضيعها قد رويت عن عائشـة وأم سلمة وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة ، وأن عددا غير قليل من النسـاء اشتهرن بخـدمة العلم وجودة الشعر ، وأن عائشـة تداخلت فى مسألة الخلافة العظمى وكانت رئيسة للحزب المعارض لأحد الخلفاء ٠ وانى أورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم على الانضمام الى الطائفة التى كانت قد انحازت اليها ، وهى الخطبة التى ألقتها عند دخولها البصرة ٠

« ان الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول

الله صلى الله عليم وسلم ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل امام المسلمين (عثمـــان) بلا ترة ولا عـــذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، وانتهبوا المـال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين ، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون ، فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغى لهم أن يأتوا فى اصلاح هذا . وقرأت : « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصـــدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) ننهض فى الاصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمـر رســـول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى . فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره ») (١) . .

ويروى عن أم عطية أنها قالت : « وغزوات مع رســـول الله صلى الله عليه وسلم سبع غـــزوات ، وكنت أخلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى » .

والذى يقرأ هذه الأسطر يتخيل له أنه يرى امرأة غربية من الممرضات اللاتى وهبن حياتهن لخدمة الانسانية .

. والناظر فى الأحوال التى فضلت فيهـا شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخـــلافة والامامة والشهادة فى بعض الأحوال لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها . وان الشارع لم يراع فى هذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى العائلة وحصر الوظائف العمومية فى الرجال . وهو تقسيم

---

(١) تاريخ الطبرى ، جزء سادس ، صفحة ٣١١٦ .

طبيعي جرى على مقتضاه الى الآن التمدن فى أوربا ، ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى أعلى مرتبة تستحقها ·
وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التى خولتها الشريعة الاسلامية الى المرأة فى جميع الأعمال المدنية ـ ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل ـ يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التى تؤدى الى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق ·

والقارىء الذى تتبع سلسلة القواعد الكلية التى سردتها بغاية الايجاز لابد أن يكون قد لاحظ أنها كلها تتلخص فى عبارة واحدة هى : أنه لابد لحسن حال الأمة من أن تحسن حال المرأة · فاذا أرسل الناظر فكره ليحيط بأطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذى كان يظنه جسما · يرى المرأة التى يهيئها المستقبل تتلألأ فى أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطرى ولابسة حلة كمالها الثنائى : الجسم والعقل ·

العـــائلة

لا يتم اصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها ، بل يحتاج الى تكميل نظام العائلة · نعم ، ان ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على كمال نظام العائلة ولكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط بالعوائد والأحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير فى ارتقاء المرأة وانحطاطها · ولهذا رأينا من الضرورى استلفات الذهن الى أهم المسائل التى تمس حياة العائلة ، وهى الزواج والطلاق · وسنتكلم عليها باختصار على هذا الترتيب ·

الـــزواج

رأيت فى كتب الفقهاء أنهم يعرفون الزواج بأنه « عقد يملك به الرجل بضع المرأة » ، وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير الى أن بين الزوج والزوجة شيئا آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية ، وكلها خالية من الاشارة الى الواجباب التى هى أعظم ما يطلبه شخصان مهذبان كل منهما من الآخر ·

وقد رأيت فى القرآن الشريف كلاما ينطبق على الزواج ويصح أن يكون تعريفا له ، ولا أعلم أن شريعة من شرائع الأمم التى وصلت الى أقصى درجات التمدن جاءت بأحسن منه · قال الله تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ·

والذى يقارن بين التعريف الأول الذى فاض من علم الفقهاء علينا ، والتعريف الثانى الذى نزل من عند الله ، يرى بنفسه الى أى درجة وصل انحطاط المرأة فى رأى فقهائنا ، وسرى منهم الى عامة المسلمين • ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التى سقط اليها الزواج حيث صار عقدا غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ، ليتلذذ به ، وتبع ذلك ما تبعه من الأحكام الفرعية التى رتبوها على هذا الأصل الشنيع •

فهذا النظام الجميل الذى جعل الله أساسه المودة والرحمة بين الزوجين آل أمره بفضل علمائنا الواسع الى أن يكون اليوم آلة استمتاع فى يد الرجل ، وجرى العمل على اهمال كل ما من شأنه أن يوجد المودة والرحمة ، وعلى التمسك بكل ما يخل بهما :

فمن دواعى المودة ألا يقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج الا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر • ومن مقتضى الرحمة أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما • ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيقى الشرعى استخففنا به وتهاونا بواجباته وكان من نتائج ذلك أن يتم عقد الزواج قبل أن يرى كل من الزوجين صاحبه •

بينما فيما سبق أن جميع المذاهب فى اتفاق على أن نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها ، وذكرنا حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أمر به أحد الأنصار أن ينظر الى خطيبته وهو قوله :

« انظر اليها فانه احرى ان يؤدم بينكما » •

فما بالنا أهملنا هذه النصيحة على ما فيها من الفائدة ، مع أننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها فى الأهمية ؟ ذلك لأن الجاهل من عادته أن يميل الى ما يضره وينفر مما ينفعه •

كيف يمكن لرجل وامرأة سليمى العقل قبل أن يتعارفا أن يرتبطا بعقد يلزمهما أن يعيشا معا ، وأن يختلطا كمال الاختلاط ؟

أرى الواحد من عامة الناس لا يرضى أن يشترى خروفا أو جحشا قبل أن يراه ويدقق النظر فى أوصافه ويكون فى أمن من ظهور عيب فيه ، وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامهما الفكر !

لعلك تقول ان المرأة ترى خطيبها من الشباك مرارا ، وأن الرجل يعرف بواسطة أمه أو أخته أوصاف خطيبته ، مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما أشبه ذلك ، فيكون عنده علم بما هى عليه من جمال وشمائل — نقول هذا قد يكون ، ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ، ولا يمكن أن ينبعث عنها ميل الى طلبها ، لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس ، وتتعلق بها وبنسلها الآمال · وانما الذى يهم الانسان البصير هو أن يرى بنفسه خلقا حيا يفتكر ويتكلم ويفعل ، خلقا يجمع من الشمائل والصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباته وعواطفـــه ·

كثيرا ما يرى الواحد شخصا لم يكن رآه قبل ذلك ، وبمجرد ما يقع عليه نظره تنفر منه نفسه فى الحال نفورا تاما ولا يعلم لذلك سببا · وربما يستقبح الناظر شخصا على بعد ، ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث بينهما تبدل عنده ما وجد منه أولا بضده · وربما زين لأول نظرة منك صورة يظهر عليها بهاء الجمال حتى اذا دنوت منها تبدل ذلك الاحساس بضده لأول كلمة تصدر منها ، وخصوصا أن هذا الاحساس المادى سواء كان ميلا أو نفورا لا يتعلق بجمال وقبح المنظر ولا يحس به جميع الناس على طريقة واحدة · فان الانسان الواحد يكون منظره سببا للنفور عند شخص وللميل عند شخص آخر !

فهذه الجاذبة الحسية لابد منها عند الزوجين · وهى ان لم تكن ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج بعضهما ببعض فلا أرى فى أى شىء آخر تكون لازمة !

على أن الانجذاب المادى ليس كافيا فى الزواج ، بل يلزم أن يوجد أيضا توافق بين نفوس الزوجين ، أى أنه يوجد ـ لا أقول اتحادا لأنه مستحيل ـ وانما ائتلاف بين ملكاتهما وأخلاقهما وعقولهما، ولا تتأتى معرفة وجود هذا التوافق وعدم وجوده الا اذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلا ٠

ولا يختلف اثنان فى أن الزواج الذى يبنى على هذا التوافق يكون أمرا محترما فى نفوس الزوجين ، وتكون عقدته من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها ، ويكون موجبا للعفة والتصون ٠ وعندى أن كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لأحد من الزوجين ، مهما طال أجل الزواج ، ومهما كانت صفات الرجل والمرأة ٠ ولهذا قال الأعمش : « كل تزويج يقع على غير نظر فأمره هم وغم » ٠

ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد تنحل لأول عرض يطرأ عليها ٠ وأغلب ما يكون من ذلك لا سبب له الا رغبة كل منهما فى الخروج من قيد لا يرى وجها للمحافظة عليه والتنصل من أمر لا قيمة له فى نفسه ٠

وكل ذى ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة فى انتخاب زوجها ما للرجل فى انتخاب زوجته ، فانه أمر يهمها أكثر مما يهم ذوى قرابتها ٠ أما حرمانها من النظر فى كل ما يختص بزواجها وقصر الرأى فى ذلك على أوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب ٠

قضت العادة عندنا أن يجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذى خطبها ، فلا يصلها خبر عن صفاته وأخلاقه ، ولا تسأل هل تحب الاقتران به ، ولا يبحث أحد عن ذوقها ورغبتها وميلها ، وهى لا تجد من نفسها جراءة على أن تبدى ما فى ضميرها ٠ ويرى

الناس أنه لا يليق بالمرأة أن يكون لها صوت فى أهم الأشياء لديها • فيعطى القريب أو البعيد رأيه فى زواجها ما عداها ، ويظنون أن هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الأدب ، وهم مخطئون فيما يظنون •

منحت شريعتنا السمحاء النساء حقوقا لا تنقص عن حقوق الرجل فى الزواج ، فلها الحق مثله فى أن تتأكد بنفسها من امكان تحقيق آمالها • وما علينا الا أن نسمع صوت شريعتنا ونتبع أحكام القرآن الكريم ، وما صح من سنة النبى صلى الله عليه وسلم وأعمال الصحابة لتتم لها السعادة فى الزواج •

جاء فى الكتاب العزيز : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وكان ابن عباس يقول اتباعا لهذه الآية الكريمة :

« انى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى » وقال تعالى :

« وعاشروهن بالمعروف » •

وقال فى تعظيم حقهن :

« وأخذن منكم ميثاقا غليظا » •

وجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » •

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب النساء كما ورد فى الحديث :

« حبب الى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » •

وكان يحترم النساء احتراما برهن للعالم على حسن خلقه حتى

انه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها اذا أرادت أن تركب ، وكان يتنازل الى ملاعبتهن وممازحتهن ، حتى روى أنه كان يسابق عائشة رضى الله عنها ، فسبقته يوما وسبقها فى بعض الأيام فقال : « هذه بتلك » ، وكان يرأف بالنساء ويوصى بهن دائما ، فما روى عنه قوله : « خياركم لنسائكم » • وقوله : « استوصوا بالنساء خيرا » • والأحاديث فى هذا الموضوع كثيرة كلها تدل على أن الدين الاسلامى يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالاحسان والمعروف •

ولكن ما دامت المرأة على ما هى عليه اليوم من الجهل فالزواج لا يكون ـ كما هو الآن ـ الا شكلا من الأشكال العديدة التى يستبد بها الرجل بالمرأة •

أما اذا تعلمت المرأة حقوقها وشعرت بقيمة نفسها فعند ذلك يكون الزواج الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معا ، عند ذلك تؤسس الزوجية على انجذاب شخصين يحب أحدهما الآخر حبا تاما بجسمهما وقلبهما وعقلهما ، عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها ، فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل اليه وترتبط به بعقد الزواج ، ويعرف أهلها أن فى كمال عقلها ما يكفى لحسن اختيارها ، فيكونون معها على اتفاق فى الرأى ، فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس اياها • عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء ويذوقون لذة الحب الحقيقى •

انظر الى زوجين متحابين تجدهما فى نعيم الجنة • ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خاليا من المال أو أن يكون على المائدة عدس وبصل ؟ أما يكفيهما فرح القلب فى كل دقيقة تمر من اليوم : هذا الفرح الذى يبعث النشاط فى الجسم ، والطمأنينة فى النفس ، ويحيى فى القلب شعورا بلذة الحياة ، ويزينها له ، ويخفف ثقلها

عليه ، ويجعلها منه في مكان الرضى ، حتى قال عمر بن الخطاب : « ما أعطى العبد بعد الايمان خيرا من امرأة صالحة » ٠

أين هذا من حال عائلتنا اليوم التى نرى فيها الزوجين وأحدهما أبعد الناس عن الآخر ٠ ولو لم يكن الا هذا البعد لخف احتماله ، لكن لما كان فى طبيعة الانسان أن يجرى وراء سعادته كان كل من الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها ، ومن هذا الاعتقاد يتكون فى المنزل جو مشحون بالغيم والكهرباء يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيون الآخر ٠ وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات فى كل آن بسبب وبغير سبب فى الصباح وفى المساء ، حتى فى الفراش ٠

وتنتهى هذه الحالة بأن تتخلى المرأة عن بيتها الى الخدم يفعلون فيه ما يشاءون ، فيستولى الاختلال على ما فيه ، وتظهر فيه آثار الاهمال ، فيبدو للناظر اليه كأنه غير مسكون بأهله ، ويعلو التراب فراشه ، والقذر موائده ، وتغفل شئون الزوج والأولاد فى مأكلهم ومشربهم وملابسهم ، وتقضى الزوجة أوقاتها فى مكان واحد تفكر فى سوء ما وصلت اليه ، أو تترك منزلها من الصباح وتطوف على جاراتها لتفرج عن نفسها تلك الهموم ٠

وليس الرجل بأحسن منها حالا : فانه يهجر منزله ويستريح الى العيش فى المقاهى أو عند جيرانه ، فاذا رجع الى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت ٠

نتج مما تقدم أن الزواج على غير نظر ـ كما هو حاصل الآن ـ انما هو طريقة يستعملها الرجل فى الغالب للاستمتاع بعدد من النساء يدخلن فى حيازته دفعة واحدة أو على التعاقب ، ولا تجد فيه المرأة مزية ترضى نفسها ٠

وكان رجل يقصد من الزواج أن تكون له صاحبة تشاركه فى السراء والضراء يصعب عليه ، بل قد يتعذر ، أن يبلغ ما يريد من ذلك • ولهذا السبب رأينا فى هذه السنين الأخيرة كثيرا من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه • ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد فى كل سنة ـ لأن الشعور بوجوب تربية البنين تقدم وسيتقدم كثيرا فى المستقبل ـ صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية أمرا ضروريا لا يستغنى عنه • والا فما علينا الا أن نعلن أن الثقة بالزواج قد فقدت ، وأن المعاملة به قد بطلت وحق عليه الافلاس •

ولست مبالغا ان قلت ان رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه أمانيهم المحبوبة ، فانهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها ، وانما يطلبون صديقة يحبونها لا خادمة تستعمل فى كل شىء ، ويطلبون أن تكون أم أولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية أولادها على مبادىء الأخلاق الحسنة وقواعد الصحة •

وكل من تجرد عن التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة لابد أن ينشرح صدره عندما يرى نمو هذا الميل فى نفوسهم ، ويرى من نفسه وجوب الاصغاء الى مقالهم والنظر فى مطالبهم ، فلا يستهجنها لأول وهلة ، ولا يرميهم بالتفرنج فى آرائهم قبل البحث فيها ، بل يزنها بميزان العقل والشرع ، ومتى ثبت له أن هذا التغيير الذى نطلبه ليس الا رجوعا فى الحقيقة الى أصول الدين وعوائد المسلمين السابقين ، وأنه اصلاح يقضى به العقل السليم ، لا يتأخر عن مساعدتهم على تأييدها •

تعـدد الزوجات

تعدد الزوجات هو من العوائد القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الاسلام في جميع الأنحاء ، يوم كانت المرأة نوعا خاصا معتبرة في مرتبة بين الانسان والحيوان ، وهو من ضمن العوائد التي دل الاختيار التاريخي على أنها تتبع حال المرأة في الهيئة الاجتماعية ، فتكون في الأمة غالبة عندما تكون حال المرأة فيها منحطة ، وتقل أو تزول بالمرة عندما تكون حالها مرتقية ، الا اذا كان التعدد لأسباب خاصة قضت به عند فرد أو أفراد مخصوصين فتقف عندهم وتقدر بقدرهم • حتى في الأمة التي ألف تعدد الزوجات فيها نرى الرجل اذا بلغ من كمال العقل ما يشعر معه بمنزلة زوجته من أهله وأولاده ، وعرف أن من حقوقها أن تكون في المرتبة التي تستحقها بمقتضى الشرع والفطرة ، مال الى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات • ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده ، ولا نظن أحدا ينازعنا فيه من أن هذه العادة خفت في بعض الطبقات من أهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين أو ثلاثين سنة •

نعم ان منع الرقيق كان له أثر محمود في سقوط هذه العادة حيث قطع ورود الجواري التي كانت تملأ بيوت أكابر القوم وأعيانهم ، ولكن يظهر لي أن ترقي عقول الرجال وتهذيب نفوسهم له أثر مهم أيضا في تلاشيها ، ذلك لأن الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد ، ولا تطاوعه مروءته ان همت شهوته بامتهانها •

وبدهي أن في تعدد الزوجات احتقارا شديدا للمرأة ، لأنك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها في زوجها امرأة أخرى ، كما أنك لا تجد رجلا يقبل أن يشاركه غيره في محبة امرأته • وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعي للمرأة كما أنه طبيعي للرجل • ولو سلم أنه ليس بطبيعي كما ذهب الى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل

الديك الواحد الذى يعيش بين العشرات من الدجاج فأقل ما فيه أنه ميل مكتسب بلغ من النفس الانسانية بالعادة والتوارث مبلغ جميع الكمالات التى تولدت فى نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته من الحيوانية الى ما أعد له من الكمال الانسانى ، فهذا الاختصاص بما كسبه من التأصل فى الأنفس والرسوخ فيها لا يقل أثره عن أثر الغرائز الفطرية ٠

وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم اذا رأت زوجها ارتبط بامرأة أخرى ، اذا لا يخلو حالها من أحد أمرين : اما أن تكون مخلصة فى محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة فى قلبها وتذوق عذابها ، واما أن لا تكون كذلك لكنها راضية بعشرته لسبب من الأسباب ، فهى مع ذلك ترى لنفسها مقاما فى أهله ، فاذا ارتبط بأخرى سواها قاست من الألم ما يبعثه احساسها بأن ذلك المقام الذى كان باقيا لها قد انهدم ، ولم يعد لها أمل فى بقاء شىء من كرامتها عنده ، فالألم لاصق بها على كل حال ٠

وان قيل ان التجارب دلت على امكان الجمع بين امرأتين أو أكثر من ظهور رضاء كل منهن بحالتها ، والجواب عنه من وجهين : الأول أن ما يدعى من رضاء كل منهن بحالها ليس بصحيح الا فى بعض أفراد نادرة لا حكم لها فى تقدير حال أمة ، وأن وقائع المنازعات بين النساء وأزواجهن والجنايات التى تقع بينهم مما لا يكاد يحصى ، وهو شاهد على أن تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن وبين أزواجهن ومصدر لشقاء الأهل والأقارب ٠ فمن يدعى أن نساءنا يرضين بمشاركتهن فى أزواجهن ، ويعشن مع ذلك باطمئنان قلب وراحة بال ، فهو غير عارف بما عليه حالة النساء فى البيوت ٠

والثانى أن ما يكون من ذلك الرضاء فى القليل النادر ناشىء عن أن المرأة انما تعتبر نفسها متاعا للرجل ، فله أن يختص بها ،

وله أن يشرك معها غيرها كيفما شاء ، وليس لها على هواه حق تطالبه به ، كما كان الرجال عندنا يعتبرون أنفسهم متاعا للحكام فى عهد ليس بعيدا عنا !

ويظهر لى أن رجلا مهذبا عارفا بما يفرضه عليه الشرع والعدل لا يطيق النهوض بما يضعه على عاتقه الجمع بين امرأتين فضلا عن أكثر ٠

قدمنا أن فى فطرة المرأة ميلا الى التسلط على قلب الرجل ، فاذا رأت بجانبه امرأة أخرى فى فطرتها ذلك الميل ، ويمكنها أن تبلغ منه بضروب الوسائل ما تشتهى ، تولاها الاضطراب والقلق ، وهجرتها الراحة ، وكانت حياتها عذابا أليما ، وتلك الحال لا تخفى على الرجل المهذب ، فكيف يمكن أن تطيب نفسه بمشهد ذلك العذاب الأليـــم ؟

ويزيد النساء قلقا واضطرابا ما صرح به الفقهاء من أنه لا يجب على الرجل أن يعدل فى محبته بين نسائه ، وانما طلبوا العدل فى النفقة وما شاكلها ٠

ولا ريب فى أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد فى نفس الرجل المهذب حيث يشعر دائما بأنه هو السبب فى هذا الشـــقاء ٠

ثم ان الأولاد من أمهات مختلفات ينشأون بين عواصف الشقاق والخصام ، فلا يجدون ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم ، بل يجدون ما يعكس تلك الغرائز ، وينمى فى نفوســهم البغضاء ، ولا يستطيع أحد أن يحول بين ما يشهدون من تخاصم أمهاتهم بعضهن مع بعض ، وتخاصمهن مع والدهم ، وبين أثر ذلك فى نفوسهم ٠ بل يسرى فى أفئدتهم سم الغش والخدعة والشر ،

ويظهر أثر كل ذلك عند الفرصة : مثلهم كمثل الممالك الأوربية تظهر بحالة السلم وهى تأخذ أهبتها للحرب ، حتى اذا حانت الفرصة وثب كل منهم على الآخر فمزق بعضهم بعضا كما نشاهده فى أغلب العائلات ٠

أين هذا من منظر عائلة متحدة يعيش فيها الأولاد فى حضن والديهم ، تجمعهم محبة صادقة ، لا يتنافسون الا فى زيادة الحب ، ولا يتسابقون الا الى الخير ، يصل من بعضهم الى بعض ، يربطهم ميثاق غليظ جعلهم كأعضاء جسم واحد ، ان فرح أحدهم فرحوا معه ، وان بكى بكوا معه ٠ هم سعداء الدنيا فى كل حال ، أسبغ الله عليهم أكبر نعمة يتمناها العاقل وهى المودة فى القربى ٠

فلا ريبة بعد هذا أن خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة ، ذلك أدنى أن يقوم بما فرض عليه الشرع ، فيوفى زوجته وأولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة ، وأقرب الى الوصول الى سعادته ٠

ولا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة ، الا فى حالة الضرورة المطلقة ، كأن أصيبت امرأته الأولى بمرض مزمن لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية ٠ أقول ذلك ولا أحب أن يتزوج الرجل بامرأة أخرى حتى فى هذه الحالة وأمثالها ، حيث لا ذنب للمرأة فيها ٠ والمروءة تقضى أن يتحمل الرجل ما تصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب أن تتحمل هى ما عساه كان يصاب به ٠

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل أن يتزوج بثانية اما مع المحافظة على الأولى اذا رضيت أو تسريحها ان شاءت : وهى ما اذا كانت عاقرا لا تلد ، لأن كثيرا من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل فى عائلاتهم ٠

أما فى غير هذه الأحوال فلا أرى تعدد الزوجات الا حيلة شرعية

لقضاء شهوة بهيمية ، وهو علامة تدل على فساد الأخلاق واختلال الحواس وشره فى طلب اللذائذ •

والذى يطيل البحث فى النصوص القرآنية التى وردت فى تعدد الزوجات يجد أنها تضم اباحة وحظرا فى آن واحد • قال تعالى :

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع • فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم • ذلك أدنى ألا تعولوا » • « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما » •

ومن هذه الآيات يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع • فمن ذا الذى يمكنه ألا يخاف عدم العدل مع ما تقرر من أن العدل غير مستطاع ؟ أولا يخاف الانسان من عدم القيام بالمحال ؟ أظن أن فمن ذا الذى يمكنه ألا يخاف عدم العدل مع ما تقرر من أن العدل كل بشر اذا أراد الشروع فى عمل غير مستطاع يخاف ، بل يعتقد أنه يعجز عن القيام به والوقوع فى ضده •

ولو أن ناظرا فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذا بعيدا عن معناها لولا أن السنة والعمل جاءا بما يقتضى الاباحة فى الجملة •

وكأن مجموع الآيتين قد قضى بتحليل الجمع بين الزوجات ديانة ، وبأن الله تعالى وكل الناس فى ذلك الى ما يجدونه من أنفسهم، فمن بلغت ثقته حدا لا يخاف معه أن يجور اذا أراد أن يتزوج أكثر من واحدة أبيح له ذلك بينه وبين الله ، ومن لم يصل الى هذا الحد من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه أن يتزوج أكثر من واحدة • ثم نبه مع ذلك على أن هذه الغاية من قوة النفس لا يمكن ادراكها زيادة فى التحذير •

وغاية ما يستفاد من آية التحليل انما هو حل تعدد الزوجات اذا أمن الجور • وهذا الحلال هو كسائر أنواع الحلال تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى من المنع والكراهة وغيرهما بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح ، فاذا غلب على الناس الجور بين الزوجات كما هو مشاهد فى أزماننا ، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات ، وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها ، وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة ، وشيوع ذلك الى حد يكاد يكون عاما ، جاز للحاكم رعاية للمصلحة العامة أن يمنع تعدد الزوجات بشرط أو بغير شرط على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة •

وانه ليجمل برجال هذا العصر أن يقلعوا عن هذه العادة من أنفسهم ، ولا أظن أن أحدا من أهل المستقبل يأسف على تركها ، فان التمتع بالنساء وان قل فى هذه الحالة من الجهة الشهوانية فانه يزيد من الناحية المعنوية التى تلزم أن تكون وجهة كل راغب فى الزواج • فان رجلا يسوقه الى الزواج سائق العقل ، ويوجه رغبته اليه حادى الفكر ، يعلم أنه انما يتخذ لنفسه بالزواج قرينا صالحا يمده بالمعونة فى شؤونه ، ويؤنسه فى وحدته ، ويشفعه فى عمله ، ويقوم معه على بنيه ومن يعول من أهله ، فهو يتخير لذلك خير العقائل وأكرم السلائل ، ويصطفيها على ما يحب من العقل والأدب وطهارة الظاهر وسلامة الباطن ، فيكون له منها منظر بهى وملمس شهى وصورة تعجب ومعنى يطرب • فهم يسبق الاشارة ، وذكاء يستغنى عن العبارة ، لذة بلطف الشمائل ، ومتاع بجمال الفضائل •

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها ، لتكون صاحبة له مدة تأمن شره وانقلابه ، ويأمن منها المكر والخلابة ، تحسن القيام على أولاده بالتربية الصالحة ، وتغذيهم بآدابها كما غذتهم بلبانها ، فتأخذ أرواحهم من روحها ما أخذته أبدانهم من بدنها ، فينشأون

على المحبة ، ويشبون على الألفة ، فيكون للرجل من ذلك كله مشهد ظاهره الراحة والطمأنينة وباطنه السعادة والهناء • عيش ساعة مع التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه • فأين التمتع بمثل هذه اللذة من الخلود الى ما انحط من دركات الشهوة ؟

الطلاق

قال فولتير الكاتب الفرنسى الشهير على طريقته من الفكاهة المعروفة في كثير من مؤلفاته : « ان الطلاق قد وجد فى العالم مع الزواج في زمن واحد تقريبا ، غير أنى أظن أن الزواج أقدم ببضعة أسابيع • بمعنى أن الرجل ناقش زوجته بعد أسبوعين من زواجه ، ثم ضربها بعد ثلاثة ، ثم فارقها بعد ستة أسابيع » • وقد أراد بذلك أن يقول ان الطلاق قديم في العالم ، وانه يكاد أن يكون من الأعراض الملازمة للزواج ، وهو حق لا يرتاب فيه ، فقد دل تاريخ الأمم على أن الطلاق كان مشروعا عند اليهود والفرس واليونان والرومان ، وأنه لم يمنع الا فى الديانة المسيحية بعد مضى زمن من نشأتها •

ولا يزال أثر ذلك المنع باقيا الى الآن فى شرائع الأمم الغربية التى وضعت الزواج على قاعدة أنه عقد لا ينحل الا بموت أحد الزوجين • وهذا افراط فى احترام هذا العقد ومغالاة فيه الى حد يصعب أن يتفق مع راحة الانسان •

نعم ، ان أمانى الأمم الصالحة أن تكون عقدة الزواج عندها عقدة لا تنحل الا بالموت ، ولكن مما تجب مراعاته أن الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر •

ولهذا شعرت الأمم الغربية على مر الأزمان بأن أحكام الكنسة تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضروراتهم •

وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس الى التخلص من ربقه تلك الأحكام ، فنزع الغربيون الى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم وما تقتضيه الحاجات • ولقد اشتد هذا الشعور فى الناس حتى اضطرت الكنيسة نفسها لأن تخضع لمطالبه وموافاة رغائب الكافة ، وحملها الشح بمكانتها أن تسقط على تقرير أحكام فى أحوال سمتها « أحوال بطلان الزواج » ، ورتبت على ذلك البطلان أحكاما لا تختلف فى آثارها عن أحكام الطلاق ، فقبلت فسخ الزواج اذا أثبت أحد الزوجين أنه لم يكن عند الزواج مطلق الاختيار ، أو أنه خطئ فى معرفة الآخر ، أو اذا ادعى أحد الزوجين أن الآخر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية • وأخذت تتوسع فى تأويل الحالة الثانية الى درجة متناهية حتى أدخلت فيها كل شيء • وفى الحالة الأخيرة قد تكتفى بأن يتفق الزوجان على أن يدعى أحدهما أن الآخر لم يقم أو لم يعد فى امكانه أن يقوم بأول واجب يوجبه الزواج لينالا بطلانه محتجة بأن الاخلال بهذا الحق لا تمكن معرفته الا من قبل الزوجين ، فقولهما هو الدليل الذى يصح التعويل عليه •

الا أن هذا التساهل لم يف بحاجات الأمم فى هذا الباب ، فبعد أن قنعت به مدة من الزمان انبعثت مرة أخرى الى المطالبة بتقرير أحكام كافلة للراحة ، اذ رأت أن هذه الأسباب التى قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تغلب فيها الحيلة قلما تتفق فيها الحقيقة ، وأن قيام شريعة على قوائم من الحيل مما لا ترضاه النفوس المهذبة والأذواق السليمة •

ومن أجل ذلك اضطرت الحكومات الى تقرير الطلاق والتصريح بجوازه على شروط بينها وأوسعت له محلا من قوانينها • وهكذا انحسر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله فى هذه المادة ، كما بطلت سيطرتها فى كل ما لم تتفق فيه أحكامها مع مصالح تلك الأمم • وهذا هو الشأن فى كل شرع أو دين لا يراعى أهله فى أحكامه

مقتضيات الزمان والمكان ، ويغفلون عن طبيعة الانسان ، ويقفون به فى مكان واحد عندما قرره بعض من سبقهم بدون انعام نظر فى أسراره وطرق تنفيذه •

دخل الطلاق فى جميع الشرائع الغربية تقريبا برغم معارضة الكنيسة واصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لا يجوز له أن يتزوج لعدم اعتبارها ذلك الطلاق ، ولكنه لم يصل الى الدرجة التى يستحقها من القبول والاعتبار ، ولم يستوف أحكامه الا عند الأمة الأمريكية التى فاقت غيرها ببذلها المجهود فى الاقدام على طلب الترقى ، ففتحت أبواب شريعتها للطلاق ولم تقيده بأحوال مخصوصة كما قيده غيرها •

وكل مطلع على أحوال الأمم الغربية يرى الميل عند جميعها الى التوسع فى الطلاق ، ولابد أن تنتهى يوما الى الاعتراف بأن ما أباحته الى الآن من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على أحد الزوجين ، أو الحكم عليه بعقوبة فى أحوال مخصوصة ، غير واف بالحاجة ، وعند ذلك تقرر اباحة الطلاق متى وجدت أسبابه فى نفوس الزوجين وتتركه الى مشيئتهما •

نعم ، ان اباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، ولكنه من المضرات التى لا يستغنى عنها ، ويكفى لتسويغه أن منافعه تزيد على مضاره • فان كل نظام لا يخلو من ضرر ، والكمال التام فى هذه الحياة الدنيا أمر غير مستطاع •

ونحن لا نريد البحث فى هذا الموضوع الواسع لأننا اجتنبنا فى هذا المختصر كل بحث نظرى ، وانما نقول ان من أجال النظر فى نصوص الكتاب العزيز ، وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق وأحكامه ، يشعر بالنعم التى أفاضها الله على المسلمين ،

ويقتنع بأن كتاب الله قد أتى من الحكمة على منتهاها ، وأنه وفى كل شىء حقه ·

وأول ما يجب الالتفات اليه هو أن شرعنا الشريف قد وضع أصلا عاما يجب أن ترد اليه جميع الفروع فى أحكام الطلاق ، وهو أن الطلاق محظور فى نفسه مباح للضرورة · والشواهد على ذلك كثيرة فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما جاء فى كلام الأئمة ، نورد منها ما يأتى :

قال تعالى :

« فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ·

وقال جل شأنه :

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما »

وقال تعالى :

« وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وأن تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » ·

وجاء فى الحديث : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تطلقوا النساء الا من ريبة ، ان الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات » · وقال على كرم الله وجهه : « تزوجوا ولا تطلقوا ، فان الطلاق يهتز منه العرش » ·

وجاء فى حواشى ابن عابدين : « أن الأصل فى الطلاق الحظر ، بمعنى أنه محظور الا لعارض يبيحه ، وهو معنى قولهم الأصل فيه

الحظر والاباحة للحاجة الى الخلاص . فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص ، بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران بالنعمة واخلاص الايذاء بالمرأة وبأهلها وأولادها . ولهذا قال الله تعالى :

« **فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا** » أى لا تطلبوا الفراق » انتهى (١) .

والمطلع على كتب الفقه - وان كان يجد أن جميع الأئمة قد نظروا على العموم الى هذا الأصل الجليل الذى من شأن العمل عليه تضييق دائرة الطلاق بما يصل اليه الامكان - لابد أن يلاحظ أيضا أنهم لم يراعوا فى التفريع تطبيق هذا الأصل على طريقة واحدة متساوية ، ويرى أن الفقهاء من أتباع الأئمة قد توسعوا فى أمر الطلاق ، ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة فى تطبيق الأحكام على الوقائع . وهذا الاختلاف يشاهد على الخصوص فى ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات :

أولها : مسألة وقوع الطلاق الصريح بدون اشتراط النية - فقد خالف بعض الفقهاء خصوصا من المذهب الحنفى فى هذه المسألة الأصول العامة التى بنى عليها معظم أحكام الشريعة ، وفاضت بها نصوص الكتاب والسنة ، كالأصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل والمخطىء ، وأخرج الطلاق من مشمول هذا الأصل ، فقضى بوقوعه على المكره والمخطىء والهازل والسكران مع تعريفهم السكران بأنه هو الذى لا يميز السماء من الأرض .

وظاهر أن أهل هذا الرأى لم يعولوا على النية التى هى أساس الدين الاسلامى كما يستفاد من حديث « انما الأعمال بالنيات » .

---

(١) صفحة ٥٧٢ جزء ٢٠ .

كما أنهم لم يلتفتوا الى قصد الشارع في أن الطلاق محظور في الأصل ، وأنه أبغض الحلال عند الله ، وقد عللوا نفاذ الطلاق في الأحوال التي أشرنا اليها بأسباب أذكرها للقارىء وأترك له مسئولية الحكم عليها :

قرأت في كتاب الزيلعي ما معناه « أن طلاق الهازل والمخطىء يقع ، لأن لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج ، وأن طلاق المكره يقع لأنه عرف الشرين واختار أهونهما · وأما السبب في وقوع طلاق السكران فلأنه ارتكب معصية فيكون نفاذ الطلاق زجرا له » (١) ·

ولكننا نحمد الله على أن في المذاهب الاسلامية الأخرى ما يخالف ذلك ، ويتفق مع أصول الشريعة ومصلحة العامة ، ويمكن لمريد الاصلاح أن يأخذ به فيقرر بعدم صحة الطلاق الذى يقع فى تلك الأحـوال ·

ثانيها : أن الطلاق الذى نص عليه القرآن هو واحد رجعى دائما · قال تعالى :

« يأيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا · فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم » ، وقال تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان أرادوا اصلاحا » ·

ولكن قسم الفقهاء الطلاق الى صريح وبالكتابة ، وقالوا بالطلاق

---

(١) صفحة ١٩٥ جزء ٢ ·

الصريح تقع واحدة رجعية ، ولو نوى أكثر من واحدة أو نوى واحدة بائنة • أما بالكتابة فيكون الطلاق بائنا لا تصح بعده الرجعة ، ولا تحل الزوجة الا بعقد جديد الا فى بعض ألفاظ استثنوها ويقع بها الطلاق ثلاثا ان نوى الثلاث •

الا أنه يوجد فى مذهب آخر كمذهب الشافعى رضى الله عنه أن الكنايات جميعها رجعية • ووجه الحق فى هذا المذهب ظاهر ، فانما الطلاق طلاق على كل حال ، وهو فصل عصمة المرأة من الرجل • فاختلاف الألفاظ بالنسبة الى هذا المعنى انما هو اختلاف عبارة لا يصح أن يتعلق به اختلاف حكم • ولو سلم اختلاف الأحكام باختلاف الألفاظ فى مثل هذا الباب لكان الأوجه أن يكون حكم الكناية أخف من حكم الصريح •

ثالثها : اتفق أغلب المذاهب على أن الطلاق ثلاثا متفرقة فى حيض واحد أو فى مرة واحدة وبلفظ واحد يقع ثلاثا • على أن هذا النوع من الطلاق الذى اعترف الفقهاء أنفسهم بأنه بدعى ـ أى مخالف للكتاب والسنة ـ لا يمكن تصوره على الكيفية التى قررها الفقهاء ، ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم • قال تعالى : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » ، وجاء فى تفسير هذه الآية فى كتاب « حسن الأسود » : « وانما قال سبحانه مرتان ولم يقل طلقتان اشارة الى أنه ينبغى أن يكون الطلاق مرة أخرى لا طلقتان دفعة واحدة • كذا قال جماعة من المفسرين » • وجاء فيه أيضا : « قد اختلف أهل العلم فى ارسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاثا أو واحدة فقط ، فذهب الى الأول الجمهور ، وذهب الثانى من عداهم وهو الحق • وقد قرره العلامة الشوكانى فى مؤمفاته تقريرا بالغا

وافرده برسالة مستقلة ، وكذا الحافظ بن القيم فى اغاثه اللهفال واعلام الموقعين » (١) ٠

وجاء فى ابن عابدين : « وعن الامامية لا يقع بلفظ الثلاث ولا فى حاله الحيض لانه بدعه محرمة ٠ وعن ابن عباس يقع به واحدة ، وبه قال ابن اسحاق وطاووس وعكرمة لما فى مسلم من ان ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، وسنتين من حلافه عمر ، طلاق الثلاث واحدة ٠ فقال عمر ان الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم ٠ وذهب جمهور الصحافة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين الى أنه يقع ثلاثا ٠ قال فى « الفتح » بعد سوق الأحاديث الدالة عليه : وهذا يعارض ما تقدم ٠ وأما امضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحافة له وعلمه بأنها كانت واحدة فلا يمكن الا وقد اطلعوا فى الزمان المتاخر على وجود ناسخ أو لعلمهم بانتهاء الحكم لذلك لعلمهم باناطته بمعان علموا انتفاءها فى الزمن المتأخر ٠ وقول بعض الحنابلة : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف عين رأته ، فهل صح لكم عنهم أو عن عشر عشر عشرهم القول بوقوع الثلاث باطل ٠ أما أولا فاجماعهم ظاهر ، لأنه لم ينقل عن أحد منهم أنه خالف عمر حين أمضى الثلاث ، ولا يلزم فى نقل الحكم الاجماعى عن مائة ألف تسمية كل فى مجلد كبير لحكم واحد على أنه اجماع سكوتى » (١) ٠

وقد روى فى هذه المسألة من الاحاديث مالا يدع شكا فى أن الطلاق الثلاث فى مجلس واحد لا يقع الا واحدة ٠ جاء فى الزيلعى : « وقال ابن عباس أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل

---

(١) صفحة ٥٧٦ ، جزء ثان ٠

طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » • ذكره القرطبى ورواه النسائى » (١) وجاء فيه أيضا : « وذهب أهل الظاهر وجماعة منهم الشيعة الى أن الطلاق الثلاث جملة لا يقع الا واحدة لما روى عن ابن عباس أنه قال : « كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر رضى الله عنهم واحدة فأمضاه عليهم عمر رضى الله عنه » ، رواه مسلم والبخارى • وروى ابن اسحاق عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : طلق ركانة بن عبد يزيد زوجته ثلاثا فى مجلس واحد فحزن عليها حزنا شديدا فسأله عليه الصلاة والسلام : « كيف طلقها ؟ » قال : « طلقها ثلاثا فى مجلس واحد » • قال : « انما تلك طلقة فارتجعها » (٢) •

يرى القارىء من هذه العبارات التى بسطناها ليحصل لنفسه منها رأيا أن علماء مذهب عظيم كمذهب ابن حنبل لم يعولوا على قضاء عمر رضى الله عنه ، بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبى ، ويمكن للأمة اذا أرادت الاصلاح أن تأخذ بقولهم ، لأن عمر رضى الله عنه قد بين لنا سبب قضائه بقوله : « ان الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم » ، فكأنه اجتهد فى جعله عقوبة لردعهم عنه • وكلنا نعلم أنه لم ينشأ من اجتهاد عمر الا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث وتهافتهم عليه فى محاوراتهم وأيسانهم •

بل لم لا يأخذ مريد الاصلاح بمذهب الامامية الذى نقله ابن عابدين ، وهو مذهب الأئمة من آل البيت فى قولهم كما مر : « ان

---

(١) صفحة ١٩٠ ، جزء ثان •
(٢) صفحة ١٩١ ، جزء ثان •

الطلاق لا يقع بالطلاق الثلاث ولا فى الحيض لأنه بدعة محرمة » ٠

وان سمح لى القارىء أن أبدى هنا كل ما أظنه صوابا فانى أقول لا يمكننى أن أفهم أن الطلاق يقع بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة ٠ نعم ، ان الأعمال الشرعية لا تستغنى عن الألفاظ ، اذ لو حللنا أى عقد لوجدناه مركبا من ظهور ارادة أو مطابقة ارادتين حصل الاستدلال عليها أو عليهما من ألفاظ صدرت شفاهيا أو بالكتابة ، ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الألفاظ ٠ وانما مرادنا أن اللفظ لا يجب الالتفات اليه فى الأعمال الشرعية الا من جهة كونه دليلا على النية ٠

فينتج من ذلك أنه يجب أن يفهم أن الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج ، وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج وارادة واضحة فى أنه انما يريد الانفصال من زوجته ، لا أن يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به فى كتبهم أن الطلاق هو التلفظ بحروف [ط ل ا ق] ٠

والذى يطلع على كتبهم يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الألفاظ والتفنن فى فهم معانيها فى ذاتها بقطع النظر عن الأشخاص ، وعندهم متى ذكر اللفظ تم الأثر الشرعي ، ولهذا قصروا أبحاثهم جميعها على الكلمات والحروف ، وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم طلقتك وأنت طالق وأنت مطلقة وعلى الطلاق وطلقت رجلك أو رأسك أو عرقك وما أشبه ذلك ، وصارت المسألة مسألة بحث فى اللفظ والتركيب ربما كان مفيدا للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقا علم الفقه بشىء ٠

على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثا أخرى غير تأويل الألفاظ ، والطلاق لم يخرج عن كونه عملا شرعيا يترتب عليه ضياع حقوق وانشاء حقوق جديدة ، وهو فى حد ذاته لا يقل عن الزواج

فى الأهمية حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث الألفاظ والتركيب ربما كان مفيدا للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقا علم الفقه من له المام ولو سطحى بالوظيفة السامية التى تؤديها الشرائع فى العـالم ٠

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالألفاظ ، وبحثوا فى مآخذ الأحكام التى يقررونها ، وعرفوا تاريخها وأسبابها ، وقارنوا المذاهب بعضها ببعض ، وانتقدوها ، وبالجملة لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقى لتبين لهم أن الطلاق لا يكون طلاقا الا اذا كان مصحوبا بنية الانفصال ٠

ويمكن الناظر أن يجد فى كتب الشريعة الاسلامية ما يفيد عدم صحة الطلاق اذا فقدت نية الانفصال ، فقد نقل عن شرح التلقين : « ان الرجل لو طلق زوجته بكلمة أو كلمات فى حال الغضب أو النزاع لا يقع طلاقه » ٠ ورووا فى ذلك أحاديث مثل قول على بن أبى طالب: « من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب أو اللجاج فرق الله بينه وبين أحبائه يوم القيامة ٠ قاله الرسول عليه السلام » ٠

نعم ، ان ناقل هذا القول اجتهد فى رده ، وبالغ فى ابطاله ، ولكن مريد الاصلاح له أن يبحث فى كتب الشرع كلها ، ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصا اذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاما ٠

نحن فى زمان ألف الرجال فيه الهذر بألفاظ الطلاق ، فجعلوا عصم نسائهم كأنها لعب فى أيديهم يتصرفون فيها كيف يشاءون ، ولا يرعون للشرع حرمة ولا للعشرة حقا ٠ فترى الرجل منهم يناقش آخر فيقول له ان لم تفعل كذا فزوجتى طالق ، فيخالفه فيقال وقع الطلاق ، وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته ، وهى لا تعلم بشىء ما ، ولا تبغض زوجها ، ولا تود فراقه ، بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها ٠ وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته ويألم

لفراقها ، فاذا افترق منها بتلك الكلمة التي صدرت منه لا بقصد الانفصال من زوجته وانما بقصد الزام شخص آخر بالعمل الذى كان يريده كان الطلاق على غير نية منه •

رب رجل يناقش زوجته فى بعض شؤون البيت فيرد على لسانه فى وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد وعلى غير قصد منه لهدم العصمة ، فيقال أيضا وقع الطلاق ، ويعقبه ما سبق ذكره من البلاء الذى ينزل على الزوجين •

ورب فلاح يرتكب جريمة السرقة مثلا فيساله العمدة أو مامور المركز عما وقع منه فينكر ، فيستحلفه بالطلاق فيحلف أنه ما سرق والحال أنه سرق ، فيقال كذلك وقع الطلاق ، وهو لم يقصد بيمينه الا تبرئة نفسه ، ولم يخطر بباله عند الحلف أنه مباغض لزوجته كاره لعشرتهـا •

فلم لا يجوز مع ظهور الفساد فى الأخلاق والضعف فى العقول وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الاستشهاد شرط فى صحة الطلاق ، كما هو فى صحة الزواج ، كما ذكره الطبرشى ، وكما تشير اليه الآية الواردة فى سورة الطلاق حيث جاء فى آخرها : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » ؟

أليس هذا أمرا صريحا بالاستشهاد يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وامساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهورة لدى العموم ليسهل اثباته ؟ لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا فيتمنع بهذه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذى يقع الآن بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية فى وقت غضب ؟ نظن أن فى الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس •
وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل اليه الأمة

فى زمان كزماننا هذا فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاما لنا نرجع اليها عند مسيس الحاجة كما هو شأننا اليوم ٠

بل ان أرادت الحكومة أن تفعل خيرا للأمة فعليها أن تضع نظاما للطلاق على الوجه الآتى :

المادة الأولى

كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضى الشرعى أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذى بينه وبين زوجته ٠

المادة الثانية

يجب على القاضى أو المأذون أن يرشد الزوج الى ما ورد فى الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله وينصحه ويبين له تبعة الأمر الذى سيقدم عليه ويأمره أن يتروى مدة أسبوع ٠

المادة الثالثة

اذا أصر الزوج بعد مضى الأسبوع على نية الطلاق فعلى القاضى أو المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة أو عدلين من الأجانب ان لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما ٠

المادة الرابعة

اذا لم ينجح الحكمان فى الاصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريرا للقاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق ٠

لا يصح الطلاق الا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية ٠

والذى يتأمل فى الآيات التى سبق ذكرهـا فى الاستشهاد والتحكيم يرى أن نظاما مثل هـذا ينطبق على مقاصـد الشريعة ولا يخالفها فى شيء . وليس لمعترض أن يحتج بأن نظاما مثل هذا يسلب الزوج حقه فى الطلاق ، لأن حق الزوج فى الطلاق باق على ما هو عليه الآن . فهو الذى يملك عصمة الزواج وأسباب الفراق لا تزال متروكة لتقديره . وغاية ما فى الأمر أننا اشترطنا أن يسبق الطلاق تحكيم الحكمين ونصيحة القاضى . وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج ، وانما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل لمصلحة الزوج نفسه ، حيث نرى كثيرا من الأزواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ، ثم يضـطرون الى استعمال الحيل الدنيئـة كالمستحل مثلا لمداواة طيشهم .

ألا يرى أفاضل الفقهاء أن مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هى تقليل عدد الطلاق ، فضلا عما فيها من اتباع أوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه فى الآية التى ذكرناها واتباع أمر شرعى بقى معطلاً الى الآن حيث لم نسمع باجرائه يوما خصوصا فى أمة كأمتنا بلغ أمرها من فساد الأخلاق والطيش الى حد أن الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشى ويضحك ويتشاجر ويسكر وامرأته جالسة فى بيتها لا تعلم شيئا مما جرى فى الخارج بينه وبين غيره .

دلت احصائية الطلاق عن مدينة القاهرة فى مدة الثمانى عشرة سنة الأخيرة على أن كل أربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط . واليك بيانها بالتفصيل :

سنة	زواج	طلاق
١٢٩٨ هـ	١٣٦٠١	٦٩٠٢
١٢٩٩	٤٩٠٠	٤١٥٢
١٣٠٠	٤٣٥٠	٤٦٤٨
١٣٠١	٣٤٠٠	٤٠٠٠
١٣٠٢	٤٧٠٠	٥٢٥٠
١٣٠٣	٤٧٤٩	٥٥٠٠
١٣٠٤	٤٨٥٠	٤٦٩٨
١٣٠٥	٤٧٤٩	٥٣٥٠
١٣٠٦	٥٠٠٠	٥٨٥٠
١٣٠٧	٥٧٠٠	٤٧٠٠
١٣٠٨	٦٧٥٠	٥٩٠٠
١٣٠٩	٦٩٠٠	٥٥٤٨
١٣١٠	٧١٠٠	٥٨٤٧
١٣١١	٧٤٠٠	٥٢٨١
١٣١٢	٨٢٥٠	٤٦٥٠
١٣١٣	١٤٢٥٠	٤٦٠٠
١٣١٤	٨١٥٠	٤٣٠٠
١٣١٥	٨١٤٨	٤٠٠٠

وأذكر هنا احصائية أخرى عمومية عن عدد الطلاق والزواج (١) ، الذى حصل فى عموم القطر المصرى فى سنة ١٨٩٨ :

سنة	زواج	طلاق
١٨٩٨	١٢٠٠٠٠	٣٣٠٠٠

ومنها يظهر أن كل أربع زوجات تطلق منهن واحدة وتبقى ثلاث وهذه النتيجة ان كانت أحسن من الأولى بسبب أنها تشمل سكان الأرياف الذين لا يطلقون مثل أهل مصر ، فان كليهما من أقوى الحجج على اضمحلال العائلات عندنا وسهولة تهدم بنائها ·

ومن الغنى عن البيان أن المرأة اذا ترقت وشعرت بجميع ما لها من الحقوق فانها لا تقبل أن تعامل بطرق القسوة والاهانة التى تعامل بها وهى جاهلة ، وعند ذلك يحس الرجال أنفسهم بأنه ليس من اللائق بهم أن يستعملوا حق الطلاق الذى وكله الله بأمانتهم الا عند الضرورة التى شرع الطلاق لأجلها ، فتربية النساء مما يساعد على اصلاح أخلاقنا وتأديب ألسنتنا · فان الرجل يحتقر المرأة الجاهلة ، ولكنه يشعر برغم ارادته باحترام المرأة اذا وجد منها عقلا ومعرفة وعلوا فى الأخلاق ، فيعف لسانه عن ذكر ما لا يليق بها ، ويؤدى لها حقوقها ·

ولكن لا يجمل بنا أن ننتظر ذلك الزمان الذى يبلغ فيه النساء بالتربية والتهذيب ما يملأ قلوب الرجال من توقيرهن واحترامهن ، بل يجب على كل من يهتم بشأن أمته أن ينظر فى الطرق التى تخفف من مضار الطلاق الى أن يأذن الله بتلك الغاية التى هى منتهى كل غاية · وقد بينا أن مجموع المذاهب الاسلامية قد حوى من

---

(١) هذه الاحصائية استخرجها من دفاتر المحاكم الشرعية السيد عامر اسماعيل الموظف بنظارة الحقانية (وزارة العدل الآن) والمنتدب بالمحكمة الشرعية الكبرى ·

الأحكام ما يساعد على وضع حدود تقف عندهـا العامة ، وتكون مراعاتها من الوسائل الى تقدمنا فى طريق الصلاح ، وأقل ما يكون من أثرها ألا تجد المفاسد سبيلا من الشرع الى ظهورها ، فبذلك يكمل نظام العائلة ، وتعيش المرأة فى طمأنينة وراحة بال ، ولا تكون فى كل آن مهددة بفقد مكانتها من العائلة بسبب وبلا سبب ٠

ولكن لنا أن نلاحظ أنه مهما ضيقنا حدود الطلاق لا يمكن أن تنال المرأة ما تستحق من الاعتبار والكرامة الا اذا منحت حق الطلاق : ومن حسن الحظ أن شريعتنا النفيسة لا تعوقنا فى شىء مما نراه لازما لتقدم المرأة ٠ والوصــــول الى منح المرأة حق الطلاق يكون باحدى طريقتين :

الطريقة الأولى : أن يجرى العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذى حرم المرأة فى كل حال حق الطلاق ، حيث قال الفقهاء من أهله : « ان الطلاق منع عن النساء لاختصاصهن بنقصان العمل ونقصان الدين وغلبة الهوى » ٠ مع أن هذه الأسباب باطلة ، لأن ذلك ان كان حال المرأة فى الماضى لا يمكن أن يكون حالها فى المستقبل ، ولأن كثيرا من الرجال أحط من النساء فى نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى ٠ وأستدل على ذلك بملاحظة وردت على عند اطلاعى على احصائية الطلاق فى فرنسا ، فقد رأيت أنه فى سنة ١٨٩٥ حكمت المحاكم الفرنسية بالطـلاق فى ٩٧٨٥ قضية ، منهـا سبعة آلاف تقريبا حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت أمام المحاكم أن العيب كان من الرجال ٠

ولا يصح فى الحق أن شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب المرأة جميع الوسائل التى تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه ، كأن كان شريرا أو من أرباب الجرائم أو فاسقا أو غير ذلك مما لا يمكن معه لامرأة سليمة الذوق والأخلاق أن ترضى بعشرته ٠

وقد وفى مذهب الامام مالك للمرأة بحقها فى ذلك ، وقرر أن لها أن ترفع أمرها الى القاضى فى كل حالة يصل لها من الرجل ضرر .

جاء فى كتاب « البهجة فى شرح التحفة » لأبى الحسن التسولى ما يأتى : « ان الزوجة التى فى العصمة اذا أثبتت ضرر زوجها بها بشىء من الوجوه المتقدمة ، والحال أنها لم يكن لها بالضرر شرط فى عقد النكاح من أنه ان أضر بها فأمرها بيدها فقيل لها أن تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر عند الحاكم من غير أن تستأذنه فى ايقاع الطلاق المذكور ، أى لا يتوقف تطليقها نفسها على اذنه لها فيه . وان كان ثبوت الضرر لا يكون الا عنده ، كما أن الطلاق المشترط فى عقد النكاح أى المعلق على وجود ضررها لها أن توقعه أيضا بعد ثبوته بغير اذنه وظاهره اتفاقا ، وقيل حيث لم يكن لها شرط به لها أن توقع الطلاق أيضا لكن بعد رفعها اياه للحاكم وبعد أن يزجره القاضى بما يقتضيه اجتهاده من ضرب أو سجن أو توبيخ ونحو ذلك ولم يرجع عن اضرارها . ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر . ومنهم من قوله ان الطلاق بيد الحاكم ، فهو الذى يتولى ايقاعه ان طلبته الزوجة وامتنع منه الزوج ، وان شاء الحاكم أمرها أن توقعه . فعلى هذا القول لابد أن يوقعه الحاكم أو يأمرها به فتوقعه . واذا أمرها به فهى نائبة عنه فى الحقيقة كما أنه هو نائب عن الزوج شرعا حيث امتنع عنه . وروى أبو زيد عن ابن القاسم أنها توقع الطلاق دون أمر الامام . قال بعض الموثقين : والأول أصوب » .

الطريقة الثانية : أن يستمر العمل على مذهب أبى حنيفة ولكن تشترط كل امرأة تتزوج أن يكون لها الحق فى أن تطلق نفسها متى شاءت أو تحت شرط من الشروط ، وهو شرط مقبول فى جميع المذاهب .

وهذه الطريقة أفضل من الأولى من بعض الوجوه · فان من المضار الحقيقية التى تتفق كل النساء فى التحفظ منها وبذل المستطاع فى اتقائها ما لا يكون سببا يسمح للقاضى أن يحكم بالطلاق فى مذهب مالك ، وذلك كنزوح الرجل بامرأة أخرى وزوجته الأولى فى عصمته ، فان الزوجة الأولى لو رفعت شكواها الى القاضى وطلبت منه أن يطلقها لم يجز للقاضى أن يجيب طلبها ، فلو اشترطت أن تطلق نفسها متى شاءت أو عندما يتزوج زوجها عليها كان الأمر بيدها · ولكن العمل على الطريقة الأولى أحكم وأحزم ، فان وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى الى تضييق دائرته وأدنى الى المحافظة على نظام الزواج ·

ولما كان تخويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العدالة والانسانية لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال لم تتحل أرواحهم بالوجدانات الانسانية السليمة ، كان لى الأمل الشديد فى أن يحرك صوتى الضعيف همة كل رجل محب للحق من أبناء وطنى ، خصوصا من أولياء الأمور ، الى اغاثة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات ·

خاتمـــــة

تبين للقارىء مما سبق أن ما نريد ادخاله من الاصلاح فى حالة النساء ينقســم الى قسمين : الأول يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية ، والثانى يتعلق بدعوة أهل النظر فى الشريعة الاســلامية والعارفين بأحكامها الى مراعاة حاجات الأمة الاســلامية وضرورتها فيما يختص بالنساء وألا يقفوا عند تطبيق الأحكام عند قول امام واحد انما كان اجتهاده موافقا لمصلحة عصره ، وأن يدققوا البحث فيما تغير من الأحوال والشئون ، فان وجدوا فى قول امام ما تعسر معه المحافظة على كرامة الشرع أقاموا مقامه قول امام آخر يكون في مذهبه ما يسد الحاجة بدون خروج عن أصول الشريعة العــامة ٠

والعمل على تحقيق هذين النوعين من الاصلاح هو كغيره من سائر الأعمال النافعة انما يتم بالعلم والعزيمة :

العـــلم

هو وسيلة الأمة لمعرفة حاجاتها ، وبه تتنبه أذهان أفرادها الى ما هم فيه وما درجوا عليه من الأخلاق والعوائد والكمالات والنقائص بحيث يكونون على شعور دائم بأحوالهم ، وتكون تلك الأمور دائما موضوع بحثهم ٠

ان من الغفلة بل من اســباب الشــقاء أن تكون شئوننا فى حياتنا قائمة بعوائد لا نفهم أسبابها ، ولا ندرك آثارها فى أحوالنا ،

بل نتمسك بها لأنها جاءت الينا ممن سلفنا ، وورثناها عمن تقدمنا ، وذلك كل ما فيها من الحسن عندنا ، مع أن هذا وحده لا يكفى لأن يكون سببا فى الأخذ بها ، ولا فى الثبات عليها ، بل يجب أن نفهم أن لنا مصالح ، ولمن سبقنا مصالح ، ولنا شئون ، ولهم شئون ، ولنا حاجات لم تكن لهم ، وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم ، وذلك من البدهى الذى لا يختلف فيه اثنان ٠

فعلينا أن نأخذ من العوائد ، وأن نكسب من الأخلاق ، ما يلتئم مع مصالحنا ، فنكون مالكين لمصادر أعمالنا كما يطلب منا العقل والشرع ، لا أن نكون عبيدا لعاداتنا التى وجدنا عليها آباءنا ، فيكون مثلنا مثل رجل وجد لباسه ضيقا فرأى أن يجوع ليهزل ويضعف وينحل حتى يصغر جسمه فيسعه لباسه ، لا أن يصلح لباسه بتوسعته حتى يتفق مع جسمه ٠

انا لا نجد عقبة فى طريقنا الى السعادة أصعب اجتيازا من شدة تمسكنا بعادات من سلفنا من غير أن نميز بين تلك العادات صالحها وطالحها ٠ نعم ، ان الماضى لا يصح أن يطرح جملة ، لكن يجب أن ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما أظهر من منافع ومضار ٠

لا أرى أعجب من حالنا ! هل نعيش للماضى أو للمستقبل ؟ هل نريد أن نتقدم أو نريد أن نتأخر ؟ نرى العالم فى تقلب مستمر وشئونه فى تغير دائم ونحن ننظر الى ما يقع فيه من تبدل الأحوال بعين شاخصة وفكرة حائرة ونفس ذاهلة لا ندرى ماذا نصنع ، ثم ننهزم الى الماضى نلتمس فيه مخلصا ونطلب منه عونا فنرتد دائما خائبين ٠

رأينا فى هذا القرن حادثة عجيبة أظنها وحيدة فى التاريخ ٠ رأينا أمة بتمامها خلعت عوائدها وأبطلت رسومها وتخلت عن

أنظمتها وقوانينها وطرحتها وراء ظهرها ، فقطعت كل وصلة بينها وبين ماضيها الا ما كان متعلقا بجامعة شعبها ، ثم همت فبنت بناء جديدا مكان البناء القديم ، فلم يمض عليها نصف قرن حتى قد شيدت هيكلا جميلا على آخر طراز أفاده التمدن ، فهبت من نومها ، ونشطت من عقالها ، وشعرت بأن الحياة تدب فى بدنها ، وتجرى فى عروقها دما حارا قويا فتيا : تلك هى الأمة اليابانية صارت تعد اليوم فى صف الأمم المتمدنة بعد أن قهرت فى بضعة أيام دولة الصين الجسيمة التى لم يقتلها الا اعجابها بماضيها · أليس فى ذلك عبرة لكل متبصر ؟

لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء لها أساس فى شريعتنا لكان فى ميلنا الى المحافظة عليها ما يشفع لنا · أما وقد برهنا على أن كل ما عرضناه من أوجه الاصلاح يتفق تمام الاتفاق مع أحكام الشريعة ومقاصدها ، فلم يبق لنا عذر فى التمسك بها سوى أنها قد تقدست بمرور الزمان الطويل وأننا غفلنا عن مصالحنا وتدبير شئوننا ·

اذا توهم بعض القراء أن ما ورد فى كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال ـ دفعا للفتنة ـ هو من الأحكام الدينية التى لا يجوز تغييرها ، قلنا ان هذا الاعتراض مردود بأن الأحكام الشرعية جاءت فى الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق ، ووكلت فهم الجزئيات الى أنظار المكلفين ، ووضعتها تحت تصرف اجتهادهم ، وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وأتباعه ·

ولما اتسعت خطة الاسلام ، وكثر اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم ، وعرضت لهم حاجات وضرورات اقتضت أحكاما ومشروعات جديدة ، قام المجتهدون بينهم واستنبطوا لهم من أصول الشريعة

العامة ما يناسب الوقائع الخاصة ، ففصلوا ما أجمله القرآن والسنة من الأحكام ، وفرعوا منها ما يناسب الأحوال والأمصار والأعصار ، فهم لم يضعوا بذلك شرعا ، ولم يضيفوا على الدين شيئا ، وانما كان اجتهادهم مقصورا على النظر فى الجزئيات وردها الى كلياتها المقررة فى الكتاب والسنة ٠

ألا ترى أن القرآن لم يبين أهم الفروض مثل أحكام الصلاة ومواقيتها وركوعها وسجودها ، ولا مقادير الزكاة وأوقاتها ، ولا مناسك الحج ، وأن السنة هى التى رسمت تلك الأحكام مجملة، ثم جاء المجتهدن ففصلوا أحكامها وقرروا فروعها ؟

على هذا النمط تألفت شريعتنا : من فروع كلها راجعة الى أصل واحد ٠

فالشريعة الاسلامية انما هى كليات وحدود عامة ، ولو كانت تعرضت الى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعا عاما يمكن أن يجد فيه كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحهما ٠

فهذه القواعد الكلية التى تحدد أعمالنا بحدود يجب الانتهاء اليها على حسب ما ورد فى الكتاب والسنة الصحيحة هى التى لا تقبل التغيير والتبديل ، أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العوائد والمعاملات فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ما تطلبه الشريعة فيها هى ألا يخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة ٠ فكشف الرأس مثلا قبيح فى البلاد الشرقية ، لأنه كا نمعتبرا فى العادة مخلا بالمروءة ، ولهذا السبب اعتبر عند أهل الشرق قادحا فى العدالة ، ولكنه غير قبيح فى البلاد الغربية فلا يكون عندهم قادحا ٠ فالحكم الشرعى يجب أن يختلف باختلاف ذلك ٠ وجواز اثبات التصرفات الشرعية بالشهادة لم يكن الغرض منه معنى مخصوصا فى أشخاص الشهود وانما الغرض منه اثبات هذه التصرفات بالطريقة التى وقع الاصطلاح عليها ولم يكن غيرها

مألوفا ، فاذا تغيرت الأحوال وتبدل الاصطلاح واعتاد الناس التعامل فيما بينهم بالكتابة تغير كذلك الحكم الشرعي وتحولت طريقة الاثبات من الشهادة الى الكتابة • واذا قيل باستحباب ستر المرأة وجهها عن الرجال لخوف الفتنة ، وعدم اقتضاء الحال لكشفه في زمان كان هناك محل لخوف الفتنة ، ولا تقضي ضرورات الحياة على المرأة بكشف وجهها ، فلا مانع من أن يتغير هذا الاستحسان الى ضده في زمان آخر ، ذلك لأن اختلاف الأحكام باختلاف العوائد والمصالح ليس في الحقيقة اختلافا في الشريعة ، وانما هو رد لأحكام الجزئيات الى أصولها الكلية ورجوع بها الى مقاصدها الشرعية •

تبين من ذلك أن لنا في مأكلنا وملبسنا ومشربنا وجميع شئون حياتنا العمومية والخصوصية الحق في أن نتخير ما يليق بنا ويتفق مع مصالحنا بشرط ألا نخرج عن تلك الحدود العامة التي أشرنا اليها •

أما التزامنا بما وجدنا عليه آباءنا وعدم الخروج عن الدائرة التي رسموها لأنفسهم فهو القضاء على الأمة الاسلامية بجمود القرائح وتقييد الأرجل وغل الأيدي عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن وجودها وتتقدم به في سبيل سعادتها ، بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال •

العزيمة

العزيمة هي حث الارادة الى كل خير أرشدنا اليه العلم والعرفان ، والفرار بها من كل شر دلنا عليه البحث والتنقيب • والعزيمة هي أشرف قوى الانسان وأجلها وأعظمها أثرا في أعماله • فالتعليم والتهذيب وسعة العقل والأميال الحسنة والغرائز الطيبة ، كل ذلك لا يفيد فائدة تذكر عند شخص مجرد عن العزيمة ، ولهذا كان ضعف الارادة أكبر عيب في الانسان •

نرى كثيرا من أهل بلادنا يستحسنون فكرة أو عملا ، ولكنهم لا يجدون من أنفسهم همة كافية لخدمة تلك الفكرة أو ذلك العمل ، ويكفى أنهم يعلمون أن بعض الناس لا تتفق معهم فى رأيهم لتلاشى ارادتهم وسقوطها ، أما اذا علموا أنه ربما يمسهم ضرر ما من ناحية ذلك العمل فهم يفرون منه فرارا ٠

ان كان لنا أمل فى نجاح ما نعده صالحا لنا وانما يكون فى الرجـل الذى يحب أن يعرف ، ويبحث ليعرف ، ويعرف بالفعل ما تحتاج اليه بلاده ، وله عزيمة تدفعه الى العمل فى جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها بالوسائل التى تؤدى الى المطلوب بطبيعتها طال الزمان أو قصر ٠

فعلى مثل هذا الرجل الكامل نعرض طريقة للعمل فيما نحن بصدده بعد العلم بأن الخطوة الأولى فى كل شىء هى من أصعب الأمور ، لأن الانتقاد جميعه ينصب على من يبتدىء فى أى أمر خطير، ومن النادر أن يوجد شخص يحس من نفسه قوة كافية لمقاومة تيار الانتقاد العام ٠

فأحسن طريقة أراها لتنفيذ ما عرضناه فى هذا الكتاب هى أن تؤسس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة التى شرحناها ، وأن يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين (ولا أظن أن الطبقات العليا من أهل بلادنا تخلو من واحد منهم) ، وأن يكون عمل هذه الجمعية فى أمرين : الأول التعاون على تربية البنات على هذه القاعدة الجديدة ، والثانى السعى لدى الحكومة فى اصـدار القوانين التى تضمن للمرأة حقـوقها بشرط الا تخرج فى شىء من ذلك عن الحدود الشرعية ، ولكن بدون أن تتقيد بمذهب من المذاهب ، بل تأخذ عن كل منها ما هو موافق لحاجاتنا الحاضرة وضرورات عصرنا ، كما حصل مثل ذلك فى وضع المجلة العثمانية ، وكما حصل عندنا مرارا فى بعض المسائل المتعلقة

بالمحاكم الشرعية . فاذا تشكلت هذه الجمعية يخف اللوم عن كل واحد من أعضائها ، فان قوة الانتقاد تأتى متوزعة على جملة من الأفراد فيسهل احتمالها ومقاومتها ، فلا يكون فى شدة الانتقاد ما يبعث على فتور الهمة وضعف الارادة عن العمل ، لأن فى قوة الجماعة من الاقتدار على المدافعة ما ليس فى قوة الفرد الواحد ، والاجتماع هو القوة الحقيقية التى بدونها لا ينجح شيء .

نرى حكومتنا تهتم بمسألة صغيرة كمسألة الشفعة فتعين لها لجنة شرعية لتبحث فى المذاهب ، وتجمع ما تراه منها مناسبا من الأحكام ، ونرى كثيرا من المصريين يدخلون فى كثير من الجمعيات مثل جمعية الرفق بالحيوان ومعارض الأزهار وغيرها ، ولا يضنون بوقتهم ولا بمالهم فى تعضيد مشروع من هذه المشروعات يعتقدون صـــلاحيته ، ونرى الجرائد تنشر بين طبقـات الأمة من المعارف ما يساعد على تربيتها وتهذيبها ، وقد آن الوقت الذى يجب فيه على الحكومة وعقلاء الأمة وأرباب الأقلام أن يوجهوا التفاتهم الى حال المرأة المصرية ، فانى لا أرى مسألة تمس بحياة الأمة أكثر منها . ولا أحق منها بأن تكون موضوعا لنظرهم ومجالا لآرائهم وأفكارهم .

الفهـرس

الصفحة

تصـدير ٣

مقـدمة ١٩

تمهيـد ٢١

تربيـة المـرأة ٣١

وظيفة المرأة فى الهيئة الاجتماعية ٣٣

وظيفتها فى العـائلة ٣٨

حجـاب النسـاء : ٦٠

الحجاب من الجهة الدينيـة ٦٢

الحجاب من الجهـة الاجتماعية ٧٢

المـرأة والأمـة ٩٢

العـائلة : الزواج ١٠٩

تعـدد الزوجـات ١١٧

الطـلاق ١٢٣

خاتمـة : العلم ١٤٣

العـزيمة ١٤٧

الفهرست ١٥١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٠٢٩ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3336 — 1

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل أصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية أو فى اقتصاده أو أمنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن أى حرب خاضتها مصر مع أعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب أشد ضراوة ، لأن أحد أطرافها هم أبناء لنا ، أعماهم التطرف : فأختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم أبناء لنا فى أجهزة الأمن ، أو أخوة لنا من المدنيين المسالمين العزل ، مسلمين وأقباطا.

ان ما تمر به مصر الآن هو مأساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرف والارهاب لمحاصرتهما واحتوائهما ، تمهيدا لاقتلاعهما تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب ... المثقفين المصريين هذه السلسلة للوقوف أمام هذه الظاهرة بالفكر ... الحق الشريفة .

بسعر رمزى
خمسة وعشرون قرشاً

الغلاف للفنان : محمود الهندى